غسان الجباعي

قمل العانة

رواية



رواية

الكاتب: غســان الجباعي



لوحـة الغلاف للفنان السـوري موفق قات

غسان الجباعي

قمل العانة

رواية

عنوان الكتــاب: قمل العانة
المؤلف: غســان الجباعي
الناشر: دار شــامة للنشر
تاريخ النشر:
رقم الايداع:
تصميـم الغلاف والإخــراج الفني للكتاب: بشــير الحامدي

دار شــامة للنشر

chema.edition2015@gmail.com
Tel;98529448/27507334

ثانية ودائمًا:

إلى أصدقائـي الموتى

الجالسـين في القبور



الفصل الأول

- 1 -

كان يجب عليها أن تلبس سروال جينز قديم وحذاء رياضيًا مناسبًا. لم تتوقع أن تقودها «كندرتها» الصفراء، بكعبها العالي المدبب، إلى قبو معتم ودرج مهدوم! هذا الدرج المنحطّ القابع تحت بناية محطمة، والذي يجب أن يأخذها نحو الأعلى، باتجاه الضوء؛ يقودها -الآن- إلى الحضيض! غابت معالمه تحت الركام، بعد أن كُسر ظهره وتخلعت أضلاعه وخرجت من بين أسنانه قضبان الحديد. قبو مليء بالحطام والنفايات والحشرات، وربما الخفافيش والفئران القذرة، والصراصير... «أنا لا أخشى شيئا كما أخشى الفئران: وجوهها المثلثة، آذانها الكبيرة، ذيولها الرفيعة الطويلة، ملمس وبرها المقزز، وعيونها الصغيرة السوداء اللامعة...»

إنها تكبل إرادتها على الرغم من حقارتها، تجبرها على حبس نفسها في غرفة الحمام؛ إذا اكتشفتْ وجودها في أي ركن من البيت... جفّان كان يرفض قتلها! شغوف هو بمراقبتها ورسمها! يقول إنها جديرة بالحياة أكثر منا نحن البشر: «هي الأبقى، لأنها الأقدر على العيش مع الخراب». مات الجميع وبقيت حيّة، غادر الجميع المكان -بما في ذلك جفان- وبقيت هي في جحورها، تقتات على ما تبقى من الفضلات، وتتكاثر...

يسبقها فرج بخطوة واحدة. تمنت لو أنه بقي بجوارها. تركها تمشي خلفه كالظل! لم تكن مضطرة للالتصاق به، والكشف عن مخاوفها. هي من أجبره على القدوم إلى هذا المكان! هي من حرضته على القيام بهذه المجازفة: «مرسم استثنائي، مدهش، لا مثيل له»... قالت، وكانت واثقة أنه ما زال سالمًا... وظل يعترض ويكرر: «كان مدهشًا... كان...! رحل صاحب المرسم والرسام، ولم يبق غير الركام... دفن تماثيله ومنحوتاته الصغيرة في «فناء القبو»، ورحل.! حتى اللوحات التي كانت بيوتًا ومرايا لوجوه سكانها، باتت مهجورة ممزقة...»

كان اسمها هند، هي رسامة أيضًا... تمنّع طويلًا، قبل أن يوافق على مرافقتها إلى ذلك القبو؛ مدّعيًا أن الأمر لا

يستحق المجازفة، وأن المكان هناك، ما زال خطرًا موحشًا، وأن جفان أخذ معه كل شيء، ورحل.! تعرف لماذا يرفض، يريدها أن تنسى! باتت اللوحات بالنسبة لفرج محض هراء، أمام المصيبة التي حّلت بالبلاد! تعرف ذلك... لكنه لا يعرف... هو -أيضًا- فنان ويقدر قيمة اللوحات، كان شاهدًا على ولادة أكثرها، لكنه لا يعرف... هاتف داخلي يقول لها إن لوحاته ما زالت صامدة، تنتظرها متكئة على الجدران أو ملتصقة بها. هي واثقة أنها نجت، وما زالت مخبأة هناك، تدير وجهها إلى جدار سميك، داخل ذلك القبو العميق... يجب أن أحصل عليها بأي ثمن... «وماذا يبقى من اللوحات إذا تكسرت الجدر وخرجت النار من نوافذها!؟ يقول فرج، «ماذا يبقى من المعنى إذا فقدت الحياة حياتها، وبات الموت هو الحقيقة الوحيدة الحية.! إذا فقدنا الغالي فمن الذل أن نبحث عن الرخيص»...

ظنت أن الأمر سيكون بسيطًا، وأنها ستجد المكان بسهولة، حتى وهي نائمة، لكنها لم تتمكن؛ حتى من معرفة تلك البناية الشاهقة بمدينة داريا[1]، البناية التي كانت مكسوة برخام أبيض، والتي تمزقت شققها وتراكمت أمام مدخلها، مثل كومة من قشور اللوز.! بات المدخل الكبير مكتومًا، فما بالك بقبو يجثم تحتها، فاحت منه روائح الجثث

1 - مدينة في غوطة دمشق الغربية، تم تدميرها وتهجير سكانها عام 2016.

والفضلات، وبات حاوية للخراب!

دخلا -خلسة- من فجوة في جدار خلفي. قادهما درج غبي، خُلعت أسنانه، نحو الأسفل! حتى الأبواب والنوافذ اجتثت من أماكنها، وطمرت بخليط من طوب مكسر وشظايا زجاج وسيراميك ورخام وحديد وخشب وقرميد وبقايا أنابيب ماء ملتوية، وثياب ممزقة ودمى وكتب ودفاتر محروقة وأصص ورد وحبال وملاقط غسيل.....

مشت خلفه مطمئنة نفسها: «سأجدها... سأجدها...» بدأ الضوء يخفت درجة بعد درجة، حتى تلاشى... وبدأت العتمة تغلفها، تمنعها من الرؤية أو التفكير وتدفعها إلى الخوف: «لو دست الآن على حشرة ما، أو لامس ساقي العارية فأر ما، لتحطمت مقاومتي في الحال، وتشبثتُ بعنق فرج، رافعة قدمي عن الأرض، أو عدت راكضة نحو فجوة الضوء، مالئة المكان بالصراخ»...

بدأت تشعر بنبض شرايينها، تسمع دقات قلبها، وهي تخفق في صدغيها وتكاد تخرج من أذنيها، صارت حواسها كلها محشورة في كندرة صفراء، تتحسس بها طريقها... جلّ ما كانت تخشاه أن تدوس عظمة ساق أو جمجمة طفل... كانت تهمس لفرج، بين حين وآخر، تنصت

إلى وقـع خطواتــه المتعـثرة؛ فترتــاح٠! ومـن سـوء حظهـا، علـق قضيـب حديـدي ناشـز بذيـل فسـتانها، فانخطفـت فجـأة إلى الخلـف بقـوة، وشـهقت، ثـم انقذفـت نحو الأمـام بعنـف؛ عندما تمـزق فسـتانها الأبيضـ المـورّد الجديـد، وكادت تسـقط أرضًا! «اتفقنـا أن نرتــدي أجمــل الثيــاب، فلبســتُ هــذا الفســتان الرقيـق المـورّد، وحملـت حقيبـة جلديـة لافتة، كي لا تشـك بأمرنـا العيـون المتربصـة، وحرصنا علـى أن نغلـق هاتفينا، ولا نسـتخدم الضـوء، خوفًـا مـن القناصـين!»

كانــت صلتهـا بفـرج عبـد الله ملتبسـة، نعـم... وكــي لا يظـننّ أحـد أن علاقة مـا مريبـة، تربطهـا بهذا الشـاب الذي لم يبلـغ الثلاثـين بعـد، والـذي التصق بهـا وصار جـزءًا عزيزًا مـن ذاكرتها؛ فلا بد من الإشـارة إلى أنها كانت أكـبر منه بعقد ونصـف، امرأة جريحة، لم تكـن جروحها قد التأمت بعد، كي تسـمح لـه برؤيتها أو لمسـها، فاكتفـى هـو بصداقتها والقرب منهـا، دون غيرهـا من النسـاء، واكتفت هي منــه بذكرى جفان ورائحته...

كان فــرج يتيمًــا... وكانــت هنــد تقـترب مــن ســن اليأســ٠!

عندمــا وصــلا إلى مــكان آمــن، أضــاء فــرج مصبــاح

قداحتـه الخافـت، وبـدأت الخيـالات الغامضـة تتحـرك معهمـا وتتراقص حولهمـا، مثـل أشـباح الكوابيس فوق جـدار مغارة خرافيـة، تكـبر وتصغـر وترقص وتتلاشـى... «سـأجدها... سـأجدها»... تقدمـا كلصـين مـن بـاب وحيـد. عـرف فـرج البـاب كمـا عرفته هـي. كان هذا المرسـم الملعون أول مشـغل عمـل فيه فـرج، أول الحياة.! وكان جفـان شـريكًا ورفيقًا، كما كانـت هنـد شـريكة لـه ذات يـوم... تسـميه مرسـمًا، وفرج يسـميه مشـغلًا، وكلاهمـا يعـرف لـون هـذا البـاب الحديـدي المبتـذل، طولـه وعرضـه وملمسـه وشـكله... مفتاحـه ما زال معهـا، في حقيبتهـا الجلديـة! كان لونـه أسـود، لكنـه تحـول إلى مـا يشـبه الرمـاد أو الغبار! فيه ثقـب يتسـع لإصبعها، تحول إلى ثقب رسـائل في بداية حبهما، كانت تدس له الرسـائل عندما لا تجـده في القبـو... وكـم زارتـه في النهـار وقضت الليـل معه، كلمـا سـنحت لهمـا الفرصـة...!

«كان ينحتنـي كل مـرة بأصابعـه، يرسـمني بعرقـه ومائـه... عنقي، يبدأ دائمًا من سرتي، ولا ينتهي عند ذقني أو شـفتيّ! رعشـتي لا تبدأ مـن فرائصي، بل من رموش عيني... أسـتطيع أن أخرج رأسـي من النافذة وأصابع قدمي من الباب؛ وأنـا جالسـة في حضنـه فـوق أريكتـه، علـى الأرض العاريـة البـاردة مثـل لوحـة. وكنـت أرسـمه بالنبيـذ بكحـل العينين وأحمـر الشـفاه واللعاب... وكلمـا انعقد ماؤه اللزج في داخلي،

محوته خلسة بالدم! كم مرة رسمني فأجهضت، ثم حبلت، ثم أجهضت، ثم...»

كانا يحتفظان باللوحات ويجهضان الأجنة! لم يكن لديهما خيار آخر؛ علاقتهما كانت محرمة، ولم يكن جفان يحلل الزواج... لولا ذلك، لصار لديهما الآن أطفال أكثر بكثير من اللوحات المكدسة والأيقونات المعلقة! ولكانوا ماتوا جميعًا في الحرب، لا إجهاضًا في المستشفيات والعيادات المارقة، بل ذبحًا بالسكاكين وحرقًا بالنار، أو خنقًا بالغازات السامة، أو وأدًا تحت الأنقاض والركام...

فرج - أيضًا - كان يملك نسخة من المفتاح، أخرجها من جيبه الداخلي وحاول فتح الباب بهدوء، لكن لسان القفل رفض أن يتحرك! لم يكن يريد أن يصدر ضجيجًا، حاولت بدورها... كان القفل صدئًا، أو أن الباب كان مصروعًا، أصابه ارتجاج في الأضلاع، بسبب القذائف! لكن، ما إن دفعه فرج بكتفه دفعة قوية، حتى سقط فجأة على الأرض مع إطاره، مصدرًا ذلك الأنين الموجع والصوت المجلجل!

كاد قلبها يتوقف وكادت تسقط فوق الباب، لو لم تتشبث بفرج... جمّدهما الخوف برهة، وكم كانت دهشتهما كبيرة، عندما انقشع الغبار وساد الصمت، وظهر ضوء مفاجئ، تبين أنه انبثق من فجوة، أكبر بكثير من نافذة،

وأصغر من جدار! فجوة عشوائية تطل على وجيبة يضيئها النهار! شوشهما الذهول والوجل.! لم يجسرا على الحركة أو حتى الارتباك... وخيم السكون من جديد، وبات كل شيء واضحًا مرعبًا وغبيًا... إنها قذيفة هاون، وربما قذيفة دبابة مارقة...

الأسوأ من ذلك، أنها مع أول خطوة خطتها داخل تلك الغرفة الغريبة؛ سمعت عبارة عدوانية ساخطة، خالية من المودّة والاحترام:

- «اطلعوا لبرّا»![1]

توقفت مكانها. خافت أن تتراجع. نظرت إلى فرج مستفهمة مستعينة به.! بدا وكأنه لم يسمع أو يرَ شيئًا، مع أنه هو من دخل أمامها. «ظننت أني واهمة.! تلفّتُ حولي. انتظرت أن أرى ذلك الرجل، أن أجد ذلك المرسم وتلك الصناديق والتحف الفنية المنوعة، والمنحوتات النحاسية والفضية والخشبية! أين هي!؟ أين حطامها!! هل سرقوها!؟»

كانت الغرفة مهجورة، خالية تمامًا من الأثاث والإنس، خالية من اللوحات والألوان ورائحة زيت النفط... مرسم بلا سيبة رسم أو علب ألوان وفُرش... هو أقرب إلى المغارة

---

1 - اخرجوا من هنا

المجوّفة، منه إلى الغرفة المكعبة، جدر سميكة، مطلية بملاط خشن متشقق، تنزّ منها الرطوبة الغامقة، مشكلة أمواجًا عجيبة من العفونة الكلسية المتدرّجة... بدا لها السقف مائلًا، منخفضًا جدًّا، متعرّجًا حتى... الهواء معتلّ بالتأكيد، رائحة العفونة تطغى على رائحة السبيداج والأصباغ والزيوت. ضوء ترابي مصاب بالرمد، ربما بسبب الضياء المنبعث من الفجوة العشوائية.! الحيطان جرداء تمامًا، والأثاث الوحيد في هذه المساحة المحايدة، خليط من خرق حائلة، وثياب قديمة ممزقة، وأغطية رثّة، وأسمال، وعلب كرتون بالية، مكوّمة في الوسط... اللون الوحيد في هذا المكان البدائي، هو لون الغبار... اللوحة الوحيدة هي ما رسمته العفونة من أشكال وظلال فوق الحيطان. مصدر الضوء فيه، فجوة فتحتها قذيفة.! أما النافذة، فما من نافذة سوى الباب القتيل الذي سقط مع إطاره قبل قليل، وما زال مفتاحه في حقيبتها.!

«توقعت أن أجد مرسمًا مضاء بنافذة واحدة على الأقل! لم أنتبه إلى أن الفجوة أكلت النافذة التي أعرفها! كنت آمل أن أسمع سعاله، أو عبارة: أهلًا وسهلًا، مثلًا! قد تكون ساخرة، ولعلها ساخطة أو حزينة، فأنا على موعد مع رجل «محبط»، رحل منذ سنة (كما قال فرج)، وبقي ظله. يقضم أصابعه في الليل ويستخدمها في النهار لمزج الألوان

المتوحـدة. رجل لم يغتسـل منـذ أن أطلقـوا عليه النـار. كثيف الشـعر، طويل الشـاربين والذقـن، في الأربعينات مـن عمره»... انتظـرتْ أن تجـده كما عهدتـه، جالسًـا علـى الأرض، يشرب قهوتـه، أو منزويًـا، صامتًـا ربما، أو واقفًـا علـى قـدم واحـدة بمواجهـة نافـذة رسـمها علـى الجـدار بحـبره الأحمـر. لكنهـا لم تجـد الرجـل، بـل سـمعت صوتـه وحسـب. تعـرف صوتـه جيـدًا، كان خشـنًا واضحًـا حقيقيًـا، تـردد صـداه في الغرفـة كالطنين. ازدادت حيرتها، وبدأت تشـكّ بما سـمعت ورأت؛ لكن مـا إن خَطـتْ خطـوة جديدة داخـل الغرفة، وقالـت: «مرحبا» كعادتهـا، حتـى تكـرر الصـوت ثانية، وبشـكل حاسـم هذه المرة:

«اطلعوا لبرّا ولا»...

جفلـتْ، ظنـت أنـه لم يعـرف صوتهـا، وأن الأمـر موجّـه إليهـا تحديـدًا! واحتارت مـاذا تفعـل! تقهقرت بشـكل غريزي إلى الخلـف، بينمـا تابع فـرج طريقـه بثقة وهـو يعلن:

«مرحبـا جفـان... هــذا أنــا، فــرج»، وأزاح ســتارة سـميكة، عُلّقـت بالمسـامير في صـدر الغرفـة؛ تغطـي «مطوى»[1] مبنيًّـا مـن الطـوب، حوّلـه صاحـب القبـو إلى مسـتودع لـ

1 - المطوى: خزانة إسمنتية أو طينية على شكل صندوق مستطيل بارز، يستخدم لطيّ وتخزين أفرشة البيت والأغطية والمخدات.

«الأنتيــكا» والمقتنيــات العتيقــة.

هنـاك، خلـف تلـك السـتارة، رأت جفـان، وقـد عـاد إلى أصلـه، عاريًـا محشـورًا في فـراغ ضيـق، يسـتلقي علـى قفاه ولا يسـتر جسـده إلا شـعره الأسـود. كان حقيقيًـا! وشـعرتْ أنـه سـينهض أخـيرًا، كـي يطردهـا، كـي يحتـج ويصـرخ، مثـل أي «قـرد» يقتحـم عالَمـه السـري ذكـر آخـر... هُيئ لهـا أنه سـيخرج مـن مكانـه، دون أن يغطي شـعر عانته الكثـة، لكنه بقـي هادئـًا، مسـالمًا! وكادت أن تلقـي السـلام عليـه، لكنهـا اكتشـفت أنـه مقيد اليديـن بحبل ثخين خشـن، يشـبه حبل المرسـاة، ويتلاشـى مثلهـا تحت المـاء.! كان مغمورًا بالماء الآسـن، والفقاعـات تخـرج مـن سـرته وأنفـه وأذنيه... تحـرك متكدرًا مثل سـمكة نائمـة. غطى عينيـه الكبيرتين بجفنيـه الثخينين، عندمـا رأى الضـوء الباهت، وبـدأ يتقلّص ويتكور على نفسـه، محـاولًا أن يطوق ركبتيه بسـاعديه، ويقلّص جسـده إلى أصغر كتلـة ممكنة، داخل ذلـك المطوى المغلق، تحول إلى جنين مكسـوّ بالطحالـب... وبـدأ يغـرق ببطء، حتى اسـتقر أخـيرًا في القاع، ثـم اسـتدار بوجهه المثلـث نحوها، وتوقف عـن الحركة تمامًا...

«واختلـط الأمـر علـيّ، عندمـا التقـت عينـاي بعينيـه السـوداوين. مـن هذا!؟ مـن أين!؟ ولماذا!؟ هل هـو صاحب ذلك الصوت الخشـن، الذي أمـرني بالخروج، قبل قليـل، أم هو كائن

خرافي منسـي داخل هـذا الرحـم المتعفن!؟»

مـا روّعهـا حقًا، هـذا الوجـه المثلـث الصغـير، إنه يشـبه إلى حـد كبـير وجه الفـأر: جبينـه، أنفه، شـفتاه، ذقنـه، عيناه الخرزتـان، شـارباه الطويـلان، حتـى شـعر عانتـه يشـبه عانة جفـان... لكن هـذا الوجه بـلا حاجبـين. عينان كامدتـان مثل حفرتـين. أذنـان كبيرتـان ذابلتـان، إحداهمـا سـقطت علـى كتفـه، كورقـة يابسـة.! أهدابـه سـوداء طويلـة، أكـثر مـن الـلازم؛ بدت كما لـو أنها رُسـمت -على عجـل- بقلم من أقلام كحلتهـا. أصابعـه دقيقـة، رفيعـة تُذكـرك بأقـلام الرصاص أو أعـواد الكبريت. أظفـاره طويلة مدببة. جسـد غير متناسـق، يميـل إلى الغلـو، بخطوطـه الحـادّة البـارزة وألوانـه المكدسـة. تشريح سـقيم لرجـل ضامـر: صـدر عريـض، خصـر نحيل، رقبـة مائلة، سـاقان طويلتـان مرفوعتان نحو الأعلـى، مطويتان عنـد الركبتـين إلى بطـن ضامر... للوهلة الأولى، بـدا لها كائنًا معلَّقًـا، أو فاقـدًا للجاذبيـة الأرضية. لا تدري إن كان يسـتلقي علـى ظهـره أم يتأرجح داخل هـذا الإطار الإسـمنتي. بدت لها أعضـاؤه التناسـلية نافرة مثل... مثل...! لا، لا، لحظة... حدث أمـر طـارئ، لم تتمكـن بعـده من وصـف أي شـيء... سـتتوقف الآن عـن الرؤيـة والتفكـير. وتزعق فـورًا، وبصوت حـاد، مثل كل النسـاء، وتخرج من المـكان كالمختلّة... في البـدء، تتلعثم، تتقلص أضـلاع صدرهـا وتعجـز عـن التنفسـ... لم تصـدق

عينيها بعد.! لم يكن عضوًا تناسليًا، بل فأرًا حقيقيًا سمينًا جدًا، يختبئ بين ساقيه وينظر إليها بخرزتين لامعتين. أخذها العجب برهة، لكن ما إن قفز هذا الفأر من بين ساقيه، وركض مسرعًا ليختبئ في كومة الخرق المليئة بالفئران؛ حتى زعقت، وهربت من المكان، خارجة عن طورها... ولحق بها فرج مسرعًا، حاول إقناعها بأن ما رأته محض لوحة. لكنه لم يستطع، وما أظن أن أحدًا يستطيع إقناعها بذلك...

قال لها مستغربًا: «ما بك!» وقال غاضبًا: «هل خفتِ!؟» وقالت له: «لوحة يا فرج!! لوحة تتحرك فيها الفئران وتقفز منها إلى الأرض!؟»... «لم يتحرك شيء، والله لم يتحرك شيء غير الستارة التي أزحتها بيدي».

كانت منفعلة لدرجة أنها لم تكن مستعدة لتصديق رجل واحد، وتكذيب عينيها الاثنتين. «خيّل إليك ذلك هند، صدقيني. هذه لوحته الأخيرة. إنها لوحة!؟».

طلب منها أن تعود ثانية لتراها من جديد، وتتأكد بنفسها؛ لكنها تركته وخرجت مذعورة، وعادت وحيدة إلى بيتها؛ غير عابئة بالعيون وبنادق القناصين، ولا بفستانها الممزوق من الخلف، وساقيها المجرّحتين، ومؤخرتها شبه العارية...

- 2 -

لم تجرؤ على النهوض من سريرها! اكتشفت أنها عارية تمامًا! لم يحدث هذا من قبل! كانت ترتدي -حتى في ليالي القيظ الخانقة- ثيابًا محتشمة!

تلمست جسدها، استطلعت المكان، محاولة أن تكتشفه؛ وهي تشد اللحاف حول صدرها الذابل، أن تتذكر تفاصيل ما حدث في الليلة الفائتة: هل حدث شيء ما استثنائي.؟ كانت بمفردها كالعادة، لم يزرها أحد، منذ أن تشاجرت مع فرج، بسبب محاصرته لها! لم تخرج من البيت، ولم يكن لديها رغبة في رؤية أحد. لم تشرب الفودكا أو تدخن سيجارة حشيش واحدة، لم تشاهد التلفاز أو تمارس «طقوسها السرية» أو... حاول فرج إقناعها بزيارة

القبـو ورؤيــة آخــر لوحــة رسـمها جفـان، لكنهـا لم تصـدق. كانــت مرهقة مستوحشــة، نامت باكرًا وهــي تقرأ مذكرات بابلـو نـيرودا (منــزل الأزهـار)... لم تنتبــه إلى كومــة الثيـاب التــي وُضعـت أمـام أنفهـا، علـى كرسـي ملتصـق بسـريرها! إنهـا ثيابهـا الداخليـة.! شـلحتها وجورباها الرقيقـان وحمالة نهدهـا وفسـتانها الأبيض المـورد القصـير.! وكادت تصرخ! ما الـذي أتى بهذا الفسـتان إلى هنا!؟ اشـترته وعلقتـه في خزانتها منــذ سـنوات... نهضــت كالملسـوعة، رفعــت الفســتان بــين يديها، وشـهقت: «يـا إلهي»...! كان ممزوقًا مـن الخلف، كما لو أن آلـة حادة شـقت قفاه حتـى النهاية؛ تمامًا كمـا لو أنه حدث في الحلـم...! من الـذي فعل هذا.!؟ رمت الفسـتان في وجه المرآة وقالـت لها:

- لا يــا ســيدي الكاتــب! ليســ حلمًــا ولا كابوسًــا! لم أذهـب مـع فـرج إلى أي مـكان...! لم أكتشـف أننـي عارية! ولم أتلمس أو أشـهق أو أسـتغرب مـا حـدث! أنا عاريـة مذ ولدت، وحياتــي العاديــة هي الكابوس. من أين أتى خيالـك العبقري بهـذا الفسـتان الأبيضـ «المـورد»!؟ لا يوجـد لدي أي فسـتان! أنــا امـرأة لا ترتــدي الفســاتين منــذ سـنين! لا تحـاول التلاعـب بالوقائــع ولا بالأحــلام! أنــا لا أحلـم الحلـمَ بــل أعيشــه! إنــه عالمـي الخاصـ؛ حياتــي السـرية الموازيــة... ومـن قـال لـك إن اسـمي هنـد!؟ مـاذا تعـرف أنت عـن امـرأة وحيـدة، لا تخرج

مـن منزلهـا، حتـى تكتـب عنهـا، وتتجـرأ علـى الاقـتراب مـن هواجسـها وتأويـل أسـرارها وأشـواقها!؟ إذا كان الخيـال حقًـا مـن حقوقـك؛ فلماذا تحوله إلى كابوس! ثم، كيـف تجرأت على وصـف صـدري بالذابل!؟ هل رأيته؟ هل لمسـته؟ أنا امرأة بلا صـدر يا سـيدي! ثديـان وحلمة واحـدة! ربما كنـت ترغب في رؤيتـي عاريـة! أهـذا ما تريـد؟ هل ترغـب في ذلـك حقًا؟ هل تشـعر بمتعـة ما، وأنت تصفنـي كيف أتلمس أعضائي وأغمض عينـي؟ أتلمسـها، نعـم، لن أعتمـد على أصابعـك أو على أصابع غيرك، في تلمس جسـدي... نعـم... أتفقّد فخـذيّ وبطني، بين حـين وآخر، أعصـر صدري، أقرص حلمتي وأصفـع مؤخرتـي أحيانًـا، فمـاذا تريـد أيضًـا!؟ أن أفتـح سـاقيّ وأمارس لذتـي أمامـك!؟ حسـنًا، أمارسـها بطريقتـي، لكنـك لـن تـرى ذلـك، إلا في خيالـك الداعـر. ! مـن أنـتَ، ومـاذا تريـد مني؟ لـو كنتَ لصًـا أو متلصصًـا لأحببـت ذلـك! وتخيلتـك، وأنـت تحبـس أنفاسـك، فاغـر الفـم، مختلسًـا النظـر إلى نوافـذي، مـن خلـف سـتائرك السـميكة... لكنك محض متحرش روحي يا سـيد. ! لا تسـتخدم قلمـك ولا أصابعـك، بـل خيالـك العاجـز... ثمـة أشـياء، لا نسـتطيع ـنحـن النسـاء ـ البـوح بهـا، حتـى لأقـرب المقربـين لدينـا، لصيقـة هـي بأرواحنـا، دافئـة أكـثر مـن جسـدين. هل تعرف ذلـك؟ أم ترغب أن تـراني وأنا أداعب براعمـي وأشـهق! هكذا! بلا سـبب أو مقدمات!؟ حسـنًا، وماذا

بعـد؟ لـك أن تفتـح ركبتـيّ في خيالـك، أن تدس أصابعك بين فخـذي، وتضغط علـى ذكورتك الموتورة بيـدك الأخرى! لك أن تجتـاح جسـدي بمنظـار وهمـي، من خلـف سـتائر مغلقة، لك أن تهرس حلمتـي بأسـنانك، لـك أن تتخيـل مـا تشـاء... لكن كيـف تسـتطيع أن تنفـذ إلى الجوهـر؛ إلى الرحـم!؟

- عفوًا... أنا...

- أعـرف مـن أنـت ومـاذا تريـد. بأي حـق، ولمـاذا تكتب عنـي، وماذا سـتكتب!؟ رأيتك مـرة واحدة! وقد نسـيتك الآن تمامًا... هل تذكر اسـمي؟ كان ذاك في حلم من ظلال السـبات، أو دخان اليقظة! ربما رأيتك في سـقيفة ما، أو على شـرفة مهددة بالانهيـار من شـرفات الزبـداني[1] الخربة، أو نافـذة بلا جدار في حي جوبر[2]، أو في قبو ما، مـن أقبية الله التي تختنق بالركام! هـل تحـب الأقبية؟ لقـد أجـدت وصف المـكان: داريـا، والدرج المنحـط، والبنايـة المحطمة، وكومة قشـور اللوز، وباب الحديد الرمـادي، والفئـران والمطـوى... لكنـك خلطـت بين قبـو جفان وقبـوي! هل أنت وحيد مثلـي؟ لن تسـتطيع الكتابة لو لم تكن وحيـدًا! الكتّـاب يحبـون الأقبيـة، معتكفـون، غربـاء، أنانيون، أشـقياء، يمارسـون نزواتهـم بأحـرف وصـور مبهمـة مشوشـة!

---

1 - مصيف جبلي مشهور غرب دمشق.

2 - جوبر حي دمشقي تم تدميره وتهجير سكانه.

إنهـم يشـتهون ويحلمون، فيكتبون؛ كي يمارسـوا شـبقهم على الـورق، أو يداعبـوا بأصابعهـم لوحـة المفاتيـح في حواسـيبهم، مداعبتهـم لأزرار العاهـرات... يكملـون نقائصهـم بالخيـال! يلـذ لهـم الاحتـكاك بالفضائح، كمـا يحتك المهووس بمؤخرة طفلـة ناضجـة! يكتبـون بأقلامهـم الصلبـة كلمـاتٍ طريـة ناعمـة، يدسـون رؤوسـها في فوهـات المحابر، ثم يـكتبـون بمتعة ملتبسـة، وهـم يدركـون، أو لا يدركون، أنهم يمارسـون العادة السـرية! يـا لها مـن لعبة مجازيـة خطرة.! هـل يعقـل أن يكون الخَلـق ممتزجًا إلى هذا الحد، بالشـهوات العابـرة الهجينة!؟ تعال نمارس حبًـا نظيفًـا واضحًا، إن شـئت، أو عن طريـق التخاطر أو الصـوت والصورة...!

هـل سـئمتَ مـن «أدب السـجون» وتجـربَ الآن كتابـة قصـة مثيرة، تشـارك بهـا الآخرين في تحريـك غرائزهم؟ أهذا مـا تريـد؟ جيد جـدًا، أحسـنت، تسـتطيع الاعتمـاد علي، لكن لمـاذا حولت حلمي إلى كابوس!؟ من أذن لـك بالدخول إليه!؟ هـل تنتقـم منـي لأنني أخرجتـك منه؟ ومن قال لـك إنه كان حلمًـا أصـلًا!؟ هل تعـرف عمّا كنـتُ أبحث في ذلـك القبو؟ هل حاولـت أن تضـع نفسـك مـكاني أو أن تتعـرف علـى حكايتي؟ أم تظـن أننـي امـرأة بـلا حكايـة!؟ ومـاذا لـو تبادلنـا الأدوار؟ مـاذا لـو كنتُ أنـا من يـكتـب عنكَ؟ أكنـتُ انتقلتُ من كابوس سـاخن إلى سـرير بارد!؟ أكنتُ وصفتك عاريًا في سريرك كما

وصفتني.؟

هـذه المـرأة -أيهـا الغريـب- لا تشـبهني، بـل تشـبهك أنـت. توقـف عـن ذلـك، ولا تقـل لي انتظـري يـا سـيدتي، لم تـكتمـل القصـة بعـد! كمـا قـال -يومًـا- ذلـك المجنـون بابلـو بيكاسـو؛ عندما رسـم سـيدة، فقالت له إن اللوحة لا تشـبهها، فقـال انتظـري؛ سـوف تشـبهك، عليـك أن تنتظـري لا أكثر...

حســن! قــل لي بربــك أيهــا الكاتــب الــذي لا يشــبه بيكاســو؛ كــم صفحــة علــي أن أنتظــر؟

- ومـن قـال إننـي أنا مـن يكتـب؟ ألسـت أنتِ مـن اقترح هـذه الحكاية، وطلب أن نـكتبها معًا؟ ألم تطلبي إلي ذلك راجية!؟ ألم تدّعـي أنهـا قصـة حقيقيـة.! ألم تضعـي بين يـدي خطوطها العريضـة.! ثـم إن بطلـة الحكايـة، ليسـت أنـتِ يـا سـيدتي. إنهـا حكايـة مفككـة قاتمـة! مـا أنـتِ فيهـا إلا تفصيـل ناعم في مشـهد خشـن... أعـرف أن الكتابة عـن المرأة -حتـى العادية- أمـر عسـير وعويصـ، فما بالـك إذا كانـت «فنانة» مشاكسـة ومهووسـة مثلـك، مركبـة من زنابق وأشـواك، من حب وكره وطـين وجمر، لا يسـتطيع فهمها إلا القمر، تعيشـ أحلامًا كثيرة واضحـة كالضـوء، وحياة قليلـة غامضـة كالعتمة. جسـدها متاهـة مـن قناديل الليـل والبحـر، وبتلات الـورد... وتاريخها

ملتبس، سري وغامض.! إنه أمر صعب جدًا، لكني وعدتك، وسأحاول...

- «لا يستطيع فهمها إلا القمر.!» يا لها من تعابير رومانسية مبتذلة.! ومن قال إن تاريخي ملتبس، ولماذا وضعت كلمة فنانة بين قوسين؟ هل تشك في موهبتي أيها السيد!؟

- أبدًا... الحكاية ليست عنك أنتِ! ليست عنك وحدك! بل عن أولئك النسوة اللواتي عرفنني، وتركن ندوبًا في ركبتي وظهري.

- هكذا إذًا.! ولماذا اخترتَني أنا؟ هل كنتُ إحداهن!؟ قلْ... لا أعرف كم طعنة تلقيتُ في حياتي، ولم أعد أذكر وجوه الرجال الذين عرفتْ، ولا عدد الركب التي ركعت عارية في سريري... هل تعرف العلامات الفارقة بين فخذي!؟ لدي وشم في عانتي، خبأته تحت الشعر، لم ينتبه إليه أحد منكم بعد، هل تعرفه؟ هل تذكر لون عيني، رائحة جلدي، سجلي «الأخلاقي»... لماذا تريد أن تتحدث عني وليس عنكَ؟

- وما الفرق؟ نصفي امرأة ونصفي الآخر يشبهها في القسوة والرقة والغيرة و«التخبيص». يحق لكِ أن تغضبي!

أن تمتصي شغفي على عجل، كما تمتص النبتة ماء الرمل، قيدنا واحد وحكايتنا واحدة.

- وما هي؟

- ليست عن ذلك الصديق العتيق الذي ظل - لسنوات- يقبع داخل قبو مدمر، يستلقي على قفاه عاريًا عائمًا خلف ستارة ذلك المطوى المبني من الطوب... لكن القبو واحد -على أي حال- واللحم واحد، والنفس واحدة، أمارة بالسوء والجودة والرداءة... تذكري ذلك... كل منا يكمل خطيئة الآخر، وما من خطيئة، صدقيني. من ذا الذي اخترع الخطيئة ونسي الخطأ؟ نحن مجبولون على النقص حتى نكتمل، النقص مجدنا وخلودنا... أجسادنا خُلقت عائبة، وكل جسد يحتوي عيب الآخر، من دون احتواء! لا وجود لذكر وأنثى في السليقة والإبداع! فالطبيعة أنثى، وكلاهما نسخة عنها... سننتظر كثيرًا حتى نتشابه، ربما بضعة عقود، وربما يجب علينا أن ننتظر الموت، ليس موتك أو موتي، بل موت الحكايات.

- أَكمَل الروايات تلك التي لا تنتهي بالسعادة...

- بل أكملها تلك التي نتخلص منها...

- تعــال إذن ننــام معًــا، كــي ننهيهــا في الحلــم... لــكَ سـريرك، ولي فراش الشـوك، والحلم واحد، لا يحتاج إلى أسرة أو أثــاث، مثــل الكوابيس.

- ألا تريديــن أن تكــوني امــرأة مثــيرة؟ محبوبــة، مرغوبة، شـهوانية؟ ألا تريديــن أن تكوني بطلة؟

- بلــى، مــن لا تريــد هــذا! لا حيــاة بــلا إثــارة وشــغف وبطــولات! لكــن يجــب أن أصنعهــا بنفســي.

- فلمــاذا تعترضــين إذن علــى الإثــارة!؟ هــل تحلمــين بــأن تكــوني حقًــا، مــن لحــم ودم وأعصــاب، أم خرافيــة مــن زجــاج ونــور!؟ ســتكونين خرافية... وقــد أغرم بك أيضًــا، كما أغرم بجماليــون بـــ جالاتيــا... عليــك أن تعــترفي أولًا: لمــاذا ذهبــتِ إلى ذلــك القبــو؟ هــل تعرفين عمّــا كنــت تبحثين؟

- أنــا لا أبحــث عــن شــيء. دعــك من هــذا. ولمــاذا أبحث؟ كل مــا فوق الــتراب صار تحته.! ولماذا «يجــب» علي أن أعترف، وبــأي حق تطلــب إلي وتأمرني!؟

- قلــتِ إنــك تملكين حكايــة وترغبــين في التخلص منها، حكايــة مرعبــة لا تســتطيعين احتمالهــا! هــل تذكريــن؟ ألم ينصحــك طبيبــك النفســي بتفريغهــا كــي تنتصــري علــى

نفسك! ألم تطلبي مني أن نكملها معًا؟ أما برقت عيناكِ عندما وافقت... وعندما قرأتُ لكِ المقطع الأول من روايتي، شهقتِ! هل تذكرين؟ أنتِ من أغواني... دعوتك إلى غرفتي التي أمارس فيها «لذتي السرية» كما تقولين، قرأت عليك المقطع الأول، فاختلطت رعشتك برعشتي بغتة، وجاءتك لذتي الواجمة... وها أنتِ الآن تحتجين وترفضين، وفوق ذلك تقولين: لا، يا سيدي الكاتب، لم أكن أبحث عن شيء، لم يكن حلمًا ولا كابوسًا! لم أكن عارية، لم أتلمس أو أشهق أو أستغرب ما حدث.! أصبحتِ -فجأة- امرأة أخرى، وصرتُ أنا كائنًا غريبًا! محض «رجل مجهول» مختلس، أو لص نساء بناظور، مهووس بالإثارة والشبق! نعم! أشعر بإثارة عارمة وأنا أكتب؛ شعور مزيج من اللذة والمضض، لا يوازيه شعور، إنه الوحيد الدائم الذي تختلط فيه رغبات الجسد بمتعة الروح، رغبة التعري من الثياب الزائفة. لماذا تخشين العري! ولدنا عراة ونموت عراة كالصخور على شاطئ البحر، يغسلها -عبر الزمن- ماء مالح وأشعة شمس!

- لا تتحدث عن البحر! أرجوك... أنا ابنة البحر الذي فقدته.

- أعرف! قلتِ لي ذلك... ولماذا تخافين إذًا من الاعتراف!؟ أليس البحر جديرًا بالكتابة!؟ من منا لم يفقد شيئًا عزيزًا

كان يـود الاحتفـاظ به، أو يبحث عن شـيء مـا حميم فقده إلى الأبد!؟

- أنـا... لا... أبحث... عن شـيء، وأنـت... لا... تعرفني. لم أفقد شـيئًا ولا أهاب شـيئًا...! كل ما في الأمر أنني لا أعرفك، وأنّ هـذه المـرأة لا تشـبهني. ربمـا تشـبهك أنـتَ... مـن قال لك بأن اسـمي هند!؟ من أيـن أتيت بهذا الاسـم!؟ أنا «طهران زهر البـان»... قل لي أولًا: لماذا اخترتني؟ بماذا أسـتطيع مسـاعدتك؟ صحيـح أنك كاتـب، ومن حقك اختيار شـخصياتك ورسـمها، لكنهـا ليسـت مباحة لأي كان؛ حتى لو كانـت تفصيلًا لذيذًا في روايتـك... لم أقـرأ لـك شـيئًا من قبـل، وبصراحـة... لا أثق بـك! كتبـك التـي وصلتني، موجودة على الـرف! لم أكمل أيًا منهـا، لأنهـا سـاذجة مـترددة خائفـة... وكـي أكـون واضحة معـك: أنـا لا أحـب الكتّـاب العـرب، ولا أقـرأ إلا الروايـات المترجمة.!

- 3 -

عندما طلبتَ مني أن نلتقي، لم أكن أعرفك، وعندما عرفت ترددتُ، ولم أوافق على اقتراحك. طلبتُ منك المساعدة لا أكثر، وليس المشاركة! كيف يمكن أن نكتب معًا رواية واحدة هي روايتك أنتَ، وعن امرأة لا أعرفها أنا، بل أنت! ربما كان الشيء الحقيقي الوحيد، هو هذا اللقاء اليتيم بيننا، في الحلم! نعم، في الحلم، وسيبقى كذلك! وبالمناسبة، أعجبت جدًا بعينيك الحزينتين... لكني يومها، لم أستيقظ! بقيت أسبوعًا كاملًا أمشي في السبات وأسبت وأنا ماشية! وقعتُ في حالة من الاكتئاب النسائي، وتوقفت دورتي الشهرية عند الخاصرة! لم يحدث لي ذلك من قبل، ظننتُ أني وصلت إلى العنوسة قبل الأوان! كان اقتراحك مرعبًا، فجر ذاكرتي.!

ليتـك كنت فرنسـيًا، يابانيًا، أو من أي بلد بأمريـكا اللاتينية. لـو كنــت فوكــنر مثــلًا، أو أستورياســ؛ لشــعرت عندهــا بالسـعادة، وربما الاطمئنان... هـل قرأت دوستويفسـكي، وهل شـعرت بالخجل من نفسـك وأنت تقرأه.؟ ليسـ لأنه أعظم منك ومنـي، لا... بل لأننـا عندما نقرأه تسـتيقظ ضمائرنا، ونشـعر بالخجـل مـن أنفسـنا ومـن إنسـانيتنا الملطخـة بالسـخام... أما تشـيخوف... يـا إلهـي كيـف وصـف هـذا الرجـلُ المـرأةَ، في قصصـه ورواياتـه! كـم كان يحترمهـا ويحبهـا! وكيف كان ينتقدهـا بأناقة وينفُـذ إلى روحها المضطربـة بهدوء ونعومة...

سـتظن بأننـي أسـتعرض هـذه الأسـماء أمامـك، كـي أبـدو لك بأنني مثقفة.! لا يا سـيدي، ليسـ لهذا، بل لأن معظم الكتـاب العـرب تافهون، مـع احترامي لـك ولهـم، لديهم عقدة اضطهـاد مزمنـة. إنهم... منافقون، غـير مهنيين ولا موهوبين، ولا يمكـن الركـون إليهـم! لم يحدثـوا فرقًـا كبـيرًا، لا في الأدب ولا في الفكـر ولا في الفلسـفة... وكيـف يمكـن للصغـار أن يكتبـوا أفـكارًا كبيرة، عن الوجود والمـرأة والحرية والجمال.!؟ المرأة في نظرهـم، عاهـرة ملعونـة، أو طاهـرة منزهـة، مقززة ومشـتهاة وفاتنـة، في الحقيقـة والحلم، وفي الأحوال كلها، ليسـت شـريكًا؛ بـل تابعًا... إن جرحهـا سـيظل ينزف إلى الأبد...

- ومـا علاقتـي بجرحها!؟ هـل أنا مـن جرحها.؟ المرأة لا

تمل من الشكوى! تقول إنها جريحة؛ ونزيفها أجمل ما فيها. ما ذنب الرجل في ذلك؟ لو كانت الطبيعة تشكو لتحدثت عن ملايين الجروح: النهر جرح، والجبل جرح، والشجرة جرح، والنبع والريح والزهرة والأفق والبركان والنحلة... لكن الطبيعة لا تشكو؛ بل تنتفض وتنتقم لنفسها، كما يفعل الوادي؛ عندما يهدر جارفًا في طريقه كل من تجاوز حدوده... إعصار واحد يجعل الحضارة تقف على رأسها مرتعدة عاجزة أمامه! يمكننا أن نروض الريح، لكننا، نقف عاجزين أمام الأعاصير! قد نروض النهر، لكننا نعجز أمام الفيضانات والهزات الأرضية والبراكين... قوة الطبيعة لا حدود لها...

- وحضارة الرجال -أيضًا- لا حدود لشرها، لقد صنعت الحرب والتقنية القاتلة! لكنها عجزت أمام الخسة البشرية... الذكور يموتون في الحروب، وتموت النسوة في قتال الذكور عليهن! أما النساء اللواتي يمتن في الولادة وجرائم الشرف والاغتصاب والاعتداء عليهن واستغلالهن؛ فيوازي عدد الرجال ويزيد... المرأة تدفن حية عندما تولد، وعندما تجبر على الزواج من رجل لا تحبه، أو تظن أنها أحبته... إنها تدفن حية في الحقول والمطابخ وغرف النوم! تدفن في ثيابها وحجابها وعبوديتها... تموت ألف مرة في الحياة

الواحـدة، وإن تمـردت تحولـت إلى فاجـرة أو زانيـة...

- لا أحـب هـذه الكلمـات، وليس هـذا موضوعنـا علـى أي حال...

- بـل هـو موضوعـي الوحيـد! نعـم، أنـا كذلـك، لأنني تركـت جفـان يمـوت وحيـدًا، بعيـدًا في مـكان غـير بعيـد عـن يـدي. لم يكـن متاخمًـا لقلبـي عندمـا أطلقـوا النـار علـى قلبه. كان بيننـا حاجـز واحـد ومئـات البنـادق... نعـم، أنـا زانيـة في مـكان مخصـي! بشـرة بيضـاء ناعمـة، لحـم طـري، ومؤخـرة ممتلئـة، مصـدر للمتعة السـابغة والفحولة، أظفار مقلمـة مطلية بالوحـل، فـم مصبـوغ، شـعر طويـل، نهـداااان كبـيران... هل تسـتطيع أن تنسـى شَـعري، كمـا نسـيه جفّـان؟ بالمناسـبة، لم أكـن يومًا أحب الشـعر الطويل والكنـادر الصفراء والفسـاتين الرقيقـة المـوردة... كنـتُ وما زلـت ذئبـة جائحة، فهـل تتقن الحديث عن الذئاب؟ هل تسـتطيع أن تكون شـريكًا حقيقيًا لي؟ هـل تسـتطيع أن تكـون صديقًـا لامرأة بـلا نهدين؟

أنـا أيضًـا لدي مـا أقوله. هـذا صحيح! تجـاوزت الأربعين منـذ سـنين؛ وما زلـت واجمة... أريـد أن أبوح، أن أصـرخ، لكن بوحـي يخدش الحيـاء! يخرمش السـماء والفطـرة البشـرية. هـل تفهمنـي؟ وإن اسـتطعتَ فهـل تملـك الشـجاعة والأمانـة علـى البـوح ببوحي؟ هل أنتَ حـر بما يكفي، لخدش حياء هذا

العـالم بمخلبـي أنا، وليسـ بقلمـك العاجـز؟ بأنيابي أنا، وليسـ بحروفـك العائبـة؟ هل أنـتَ قادر علـى مواجهـة التبعات؟

- نعـم، هـذا ما تحلـم بـه الروايـة... إذا امتلكنا شـجاعة البوح نقـول الحقيقة!

- حسـن، لـن أسـتخدم أسـلوبك «الشـفاف» فأنـا لا أعـرف الحقيقـة، ولا أبـوح بشـيء إلا إذا كنـت مسـرنمة أو سـكرى. هل يناسـبك هذا؟ أنـا مصابة بجروح، لا أشـفى منها بالكتابـة وحدهـا. نعم، أنا ناقصـة، لكن نقصـي في الصدر لا في الرأسـ... فهـل تسـتطيع الانتظار حتـى «أكتمل»؟ وحتى إن سهوتُ أو غفوت، أو شربت الخمرة ودخنت الحشيش، لا أملك الحـق ولا القدرة على البوح، أو حتى التسـاؤل! هل منعك أحد -يومًا ما- من السـؤال أو التسـاؤل؟ هل جربت ذلك؟؟ أنا قادرة فقط علـى التخيل.

- تهربـين إلى العجز، أو تخافـين الحقيقة.

- ليتني أسـتطيع الهرب...

× × ×

- أنـا مـن قريـة «ظهر الـدب»... أجـل، سـميتْ كذلك، على اسـم صخرة عالية تشبه الدب... لا تشـبهه فحسب، بل

هـي دب حقيقـي كان يتأهـب للقفـز إلى البحر... ربما خذلته الشـجاعة، فبقي -منـذ قرون- عالقًا علـى الحافة مثل جرف...

عندما كنـتُ صغـيرة كنـت أمشـي في نومـي؛ وعندما يصطـدم وجهـي بكرسـي أو باب أو جـدار، أصحو وأخاف... وكثيرًا ما وجدتني أمي متكورة على الأرض، بجوار سريري، تحـت طاولة الدراسـة، في زاوية الغرفة، أو عنـد العتبة... بضع خطـوات لا أكـثر، كانـت تلخص رغبتـي في الهـرب؛ في ترك البيـت، والطـيران بعيدًا عن العش، على الرغم من صغر سـني. وكثـيرًا مـا كنـتُ أحلـم بـأني أطـير مثـل نورس أخرس فوق البحـر، أحلـق أو أركض خلـف فراشـة... أرفـرف بيـدي... بضـع خفقـات صغيرة في الهواء، تجعلني أصل إلى قمة شـجرة أو جبـل شـاهق، أو صخـرة بعيدة، أبعـد من صخرة الـدب التي كان يجلس عليها أبي لاصطياد السـمك.! طالما اصدم جبيني بمقبض البـاب أو حافة الطاولة، وسـال دمي على شـفتي.!

كنـتُ وحيـدة أهلـي، نعـم وحيـدة... وكـي أقلـع عـن عادتـي هـذه، كانـت أمـي تخوّفنـي مـن اللصوص والباعـة الجوالـين، الذيـن كانـوا يأتـون إلى القريـة على ظهـر زورق أو دابــة...

- لكنـك لم تخـافي! صـرت تحلمـين ببائـع جـوال يضعـك في خرجـه أو بمهـرب ماهـر يخطفـك بزورقه إلى مـكان بعيد...

- وكيف عرفتَ ذلك!؟ هل كنتَ أحد أولئك المهربين المهرة!؟

- أنتِ من كتب هذه المعلومات في أول رسالة من رسائلك... هل نسيت؟

- آ... نعم، هذا ما كتبته، لكن، ليس عني أنا بالضرورة...

- كنتُ في مثل عمرك، ومثلك عشتُ في مكان بعيد بالجبل، ورأيت النسور وهي تطير مسرنمة فوق الغيم، كنوارسك البيضاء... كنا نقول إنها خرست؛ عندما تتوقف تمامًا عن الحركة في السماء.

- وهل تنام النسور في أحلامها، أم تطير؟ هل هو حلم راودني وحدي، أم راودك أنتَ أيضًا، فأحلته إلى امرأة بفستان أبيض، تخاف الفئران والصراصير، ولا تخاف القذائف والقناصين! هل أنتَ قناص نساء أم ذكريات؟ وهل تجيد القنص والغوص في أعماق النفس، كما فعل دوستويفسكي.؟ أم أنتَ كاتب صحفي؟

أغلب الكتاب العرب مساكين، يقتنصون الفرص، لكنهم لا يستطيعون كتابة شيء حقيقي! إنهم جبناء!

معـدل الخـوف لديهـم في الـدم مرتفـع أكثر مـن المسـموح بـه.!
هـل يعقـل أن يكـون مـا رأيتـه في القبو، لوحـة بالفعـل!؟ وهل
تتحرك الأشـياء داخـل اللوحات؟ ومن هـو الفنان الاسـتثنائي
الـذي يسـتطيع أن يرسـم لوحـة حيّـة، يُعلّـق فيهـا النـاس
كالذبائـح وتتحـرك بداخلهـا الفئـران.؟ جفـان!؟

- لا... بل أنتِ!

- من أنا!؟

- أنت من رسـمها.

- أنـا!!! كيف تسـتطيع قول ذلك؟

- بحثـت عنـكِ وعرفـت... قـد لا تذكريـن... تشـتهين
البـوح وتخافـين منـه! تسـللت إلى شـهوتك عبر العينـين... أنتِ
مـن كنتِ تحلمين، منذ الرمل الأول، أن تكـون اللوحة متحركة
مثـل المـوج، أنـتِ مـن تعلقـتْ بالرسـم والنحـت والتشـكيل
والمعارض، قبـل تعلقهـا بجفـان. علاقتـك بالتشـكيل والخطوط
والألـوان والأحجـام، لم تتغـير. جفان جـاء متأخـرًا، عندما طغى
الحلـم وشـوهت الذاكرة...

- أجـل... هـو جـاء متأخـرًا جـدًا، وأنـا كنـتُ جـارة
البحـر.! ومـع أن سلسـلة مـن الصخـور العالية كانـت تفصلنا

عن الموج، غير أني ولدت قريبة جدًا منه. هو أول من سمع صرختي الأولى وصرختي الأخيرة... كم كنت أتمنى لو أن أمي غسلتني بمياه البحر عندما ولدت...

بيتنا قروي قديم مبني من الحجر، فوق نهدة مرتفعة تطل على الزبد... يقال إن جدي قايضه بقبلة منحها لإحدى الحوريات العابرات.! لذلك، كنت أشعر دائمًا أنني ولدت في سفينة دافئة علِقت هناك فوق تلك الصخرة، ثم تحولت إلى جزيرة يقرصها موج البحر... البحر الذي إذا غضب، وصل رذاذ لسانه إلى الشرفة... لولا أشجار الكينا العملاقة التي تحمي بيتنا، لغطى البحر نوافذه الواسعة بالملح...

كان والدي يحتاج بضع خطوات كي يجلس على الحافة ويصطاد السمك، وكم كنت أرافقه إلى صخرة الدب الشامخة التي تشبه وحشًا مشرئبًا نحو الأسفل... أجلس صامتة قربه، أراقب الغروب معه، أو أجمع الحصى والأصداف الصغيرة، كي أبني بيوتا للديدان والفراشات... هناك كبرت... على صوت أمواجه ونوارسه البيضاء المرقطة، وألوانه المتدرجة، ورائحته النّفّاذة، ومزاجه المتقلب الغضوب. وكم كنا نتسلل، أنا وأولاد عمتي، بين الصخور، كي نصل إلى الشاطئ، نركض حفاة شبه عراة، فوق رماله الرطبة، نجلس على حافة مياهه، نلعب لعبة العريس

والعروس، ولا يرانا أحد سواه. هل لعبتَ هذه اللعبة؟ هل تتذكرها؟ أم تعيشون هناك في الجبل بلا أعراس.؟ كان على أحد الصبيان أن يقوم بدور الأب الذي يرتب الاحتفال ويبارك العروسين، لأننا كنا ثلاثة أولاد وبنتين فقط، أنا وابنة عمي التي انتحرت لأن حبيبها مات! رمت نفسها من فوق صخرة الدب، وفوجئ البحر بجثتها.! كل الذين يريدون الانتحار كانوا يأتون إلى تلك الصخرة، قبل غروب الشمس، كي يفاجئوا البحر بأجسادهم الدافئة... كنا نرسم بيوت المستقبل على الرمل، وكان العريس يمسك بيد عروسه ويقودها إلى ذلك البيت... قبلة واحدة على الخد كانت تكفي، كي تحبل العروس وتنجب طفلًا للتو! هل تعرف كيف كنا ننجب الأطفال؟ نقوم برسمهم على الرمل، ثم ننسى.! عشرات، بل مئات الوجوه أنجبتُهم على الرمل بواسطة عود صغير، أو صدَفة! وإن لم يحدث الحَبَلُ بعد لحظات من تلك القبلة، كنت أضطر إلى خلع «لباسي» كاشفة للعريس عما أخفيه بين ساقي، كي يتأكد بنفسه أنني عروس حقيقية، ناسية تحذيرات أمي وتهديداتها. كان ذلك شرطًا من شروط الزواج الصحيح... يا إلهي... كيف كنت أعبّر عن الحمل بملء أردان ثوبي بالرمل، وربطه على بطني، كي أصير حبلى! وكانت ابنة عمي تقلد أمها الحامل بالمشي والولادة والرضاعة.!

كنا نبتعد قليلًا عن الموج، لنحفر بأصابعنا، المغاور والقبب والمسالك العجيبة، نبني مدنًا ونصنع أصنامًا عشوائية وبيوتًا عمياء وقناطر، وكنا نرسم وجوه أطفالنا وعيونهم، وسرعان ما تأتي موجة كبيرة فتمحوها، وتملأ الحفر بالماء العكر والرمل؛ تمامًا كما فعلت أمي عندما كبرت! منعتني من اللعب مع أبناء عمتي، لكنها لم تستطع منعي من الرسم. وكان الرسم -أيضًا- شكلًا من أشكال اللعب مع الصبيان... متعة حقيقية... لكني كنتُ وما زلت، أعتبر الإطار انتهاكًا، ليس للوحة وحدها، بل للمُشاهد أيضًا. كرهتُ، وما زلت أكره الخطوط المعقّدة والزوايا الحادة والمساحات الضيّقة والوجوه المشوهة والإضاءة الخبيثة وصرعات الفن التجريدي، على الرغم من أن بعضها جميل ومدهش. عشقتُ وما زلت أعشق التشريح الصحيح، والألوان الدافئة الحنونة النابضة... هل كان ذلك كله بسبب البحر؟ ربما... البحر مثل الحب، هل تعلم؟ والألوان موسيقى وأصوات ومشاعر مكثفة، تتجاور وتتدرّج وتتنافر وتتحد، عاجنة دموع المحبة بزفير الكراهية، زيتَ اللذة بالألم، فحمَ الخوف ببراعم الشجاعة وأشواكها، الذل بالكبرياء، العبسة بالبسمة، الرقة بالقسوة، وكل ذلك بكل ذاك... والخطوط إيقاعات تتوتر كالقوس، ترقص كالسراب، تجري حينًا كالماء، تتمهل أحيانًا كالوحل، ينمو العشب والشوك بين

شقوقها، تنمو الحجارة والمسامير، وقد تكون قاحلة يابسة مثل أرض محروقة... والأشكال ظلال؛ أرواح تفرح وتحزن وتكتئب، مثلها مثل الكائنات الحية، تتمايل كسنابل القمح ولا تميل، تتحرك مع وقف التنفيذ، تقف على تخوم الإشارة، كما تقف صخرة الدب ولا تسقط... هل فهمتَ عني ماذا أريد أن أقول.؟

- فهمتُ... أظن اللوحة مثلك، تمشي في نومها، وتنام ماشية! لا أذكر من قال: إنها كائن حي. يكفي أن تجرحها حتى يسيل منها الدم.

- عرفتُ ذلك قبل جفّان بقرون عديدة. ربما حين تعرفت إلى أسطورة ذلك النحات اليوناني الذي كان يخشى النساء، لكن نبض الرغبة أجبره على صنع جسد من العاج لامرأة جميلة سمّاها «جالاتيا»، فوقع في حبها، وطلب من الآلهة فينوس أن تُحْييها، وعندما صارت حيةً، كما أراد، حطّمها. هل تعرف لماذا فعل «بجماليون» هذا! قلتَ إنك تعرف هذه الأسطورة، فهل تساءلت لماذا حطمها.؟ هذه الخرافة قذفتني آلاف السنين إلى الوراء.! وربما عرفت ذلك حين رأيت ركبة موسى، النبي، الذي صنعه ميكيل أنجلو من جلمود أصم، فمنحه الحياة والصدقية؛ وعندما انتهى من تجسيده، قال له: «انطق يا موسى»، وضربه بالفأس على

ركبتـه فكسـرها...

مـا زالـت ركبـة موسـى تنـزف، والـكلام يقـف علـى شـفتيه حتى الآن. فهـل تعرف لماذا ضرب الفنـان ركبة النبي فكسـرها؟ مـن منـا يسـتطيع اليـوم أن يكسـر ركبـة نبـي!؟ ومـن منا اسـتطاع -بعد خمسـة قـرون ونيـف- أن يتعرف على الموناليـزا؟ قـل لي أنـت: هل هـي ذكر أم أنثـى ؟ مبتسـمة أم عابسـة؟ راضيـة أم سـاخطة أم هـي حزينـة؟؟ وهـل شـعر دافينشـي بلـذة مـا، وهـو يرسـمها؟ هـل رأى نهديهـا، تلمَـس خصرهـا وتأكـد مـن أنوثتهـا.؟ يقـال إن دافنشـي كان مثليًـا، فهـل رسـم الفنـان العبقـري أنوثته؟

- الأنثـى عمومًـا، تميـل إلى الأسـاطير والخرافـات... تحـب الخطـوط المنحنيـة والألـوان الزاهيـة، والأصبـاغ والزخرفة... مـن الطبيعـي أن تكـره الخطـوط المتعرّجـة والزوايـا الغامضـة والمسـاحات المغلقـة والألـوان المريبـة. الأنثـى دقيقـة وأنيقـة وخياليـة، لكنهـا واقعيـة، والذكـر تجريـدي...

- هـذا مـا تـراه أنـتَ.! كـي تهـرب مـن السـؤال.! لكن جفـان كان يقـول إني بـتُّ عدوانية تجاه اللوحـة، وإني منذ وقت (لم يسـتطع تحديده) صرت أتماهى مـع اللوحة وأصدقها. وهي، في جوهرهـا، كذبـة في إطار، لا يجـوز تصديقها.! قـد نصدق نصبًـا مـن حجـر أو خشـب أو غضار، يمكننا لمسـه؛ أما اللوحة

فهـي كلام مطلـي بالألـوان. شـهقة نافـذة في العتمـة. ثقـب صغـير في جدار سـميك، مثـل حيطـان بيتنا العتيـق. وفي أفضل الحـالات حلم كثيـف لريشـة رقيقة أو أصابع دقيقة أو سـكين مرهـف، ينسـجها كائـن، قريـب مـن الله، يقلّـد آياتـه، ليراهـا الكافـرون والحالمـون والمتطفلـون... «الفنـان كـذاب كبـير»... يقـول جفـان ذلـك، مـع كل لوحـة، وفي كل وقـت يفصـل بين لوحتـين. منذ ربع قرن وهو يقول ذلك. وقـد عرفته منذ ثلاثة معارض فقـط. قبلهـا لم يُقـم أيَّ معرض شـخصي، ولم يسـمح لأحـد أن يـرى لوحاتـه. كانـت تعشّش مثل عنقـود نحل بين ضلوعـه. الضيـف الوحيـد الـذي زار معرضـه السري كنـت أنـا. معرض وحيـد وزائرة وحيـدة، ولوحـة وحيـدة بيضاء، مسـتطيلة كسرير، مغطـاة بشرشـف أبيض ومخدتـين، لا يظهر منهـا غـير أربعة أقـدام حافيـة متشـابكة... إنها العشـاء الأخير لذكر هو هو، وأنثى، هي أنا. كنت أتشـبث بذلك الشرشـف، أرتديـه، حتـى وأنا عارية. أما هو فكان يريد أن يكشـف عري الطبيعة.

حتـى فـرج «الحزيـن»، أقـرب المقربـين إلى جفـان، لم يتمكـن من الدخول إلى معرضه السري. حـدق في عيني جفان السـوداوين، ورأى مـن خلالهمـا تلـك الأجنة الحبيسـة، قبل أن يفـرج عنهـا بسـنوات.

- تتحدثـين كثيرًا عن جفان.!

- إنــه مثلي الأعلى، وأجمـل حلم في ذاكرتي.

- وهل هـو حقيقي؟ هـل تعرفينه حقًا؟

- هـل تغار منه!!

- اعذريني... أخشــى أن يكون وهمًا!

- وهـم.! ألم تقل إن الرواية سـتكون عنه!؟

- لا! لم أقـل ذلك، إنما قلت إنها: ليسـت عن ذلـك الصديق العتيـق الـذي ظـل لسـنوات، يقبـع داخـل قبو مدمـر... وقلت إن القبـو واحـد واللحم واحـد والنفـس واحدة، أمارة بالسـوء والجودة والرداءة...

- 4 -

المـرأة تتـزوج رجلًا وليس رسـامًا. مهندسًـا أو فلاحًا أو طبيبًـا بيطريًا. قـد تكون مهنته ضرورية في الحـب، لكن الحبيب يجـب أن يكـون رجـلًا أولًا، يملـك أدوات الرجولـة، وهـي لا تكمـن في اللِّحـى والشـوارب، أو في ربطـات العنـق والعضـلات والرتـب، ولا في الخصيتـين أو في تلـك «العزيـزة الزائدة» التي تسـميها الأمهـات المحترمـات «حمامـة» أو «دندولـة»[1]... قـد تكـون اللوحـة ضـرّة المـرأة، إذا كان الرجـل رسـامًا، ويكـون الكِتـاب عشـيقًا، إذا كانـت المـرأة كاتبـة، لكنهـا تلـك الضرّة التـي تنفـع ولا تضـرّ، وذلـك العشـيق الـذي يشـبه سـتارة الـروح الشـفافة... وجفـان لم يكـن رجـلًا، بـل رسـامًا. كانت

1 - الإشارة إلى عضو الطفل الذكري

فحولتـه تكمـن في أصابعـه. مـا إن تـراه المـرأة حتـى تتحـول بـين يديه إلى لوحة عاريـة مقعّرة! وكي لا يأخـذك المعنى إلى أماكـن خطـرة، لا يـكـون الفـن حقيقيًـا إلا إذا كان عملية هتك وكشـف وزنـى... «لا يـكـون الفـن حقيقيًـا إلا إذا كان عاريًا.! الثـوب اعتـداء على الطبيعـة». هكذا قال جفـان، ولم تـكن هذه الأفـكار غريبة عنه، بـل جديدة مفاجئة لي! ربمـا كنتُ أحتاج إلى النضـج والجـرأة، كـي أعرفها وأمارسـها وأبـوح بها.

كنـتُ في طفولتي مهووسـة برسـم الوجوه، وقـد بذلتُ جهـدًا كبيرًا حتـى تمكنت من رسـم العيون، العيـون العميقة... بقيـتُ سـنوات طويلـة حتـى اكتشـفت «أسـرارها» ومشـاعر أصحابهـا، وأدركـت الفرق بين الالتفاتـة والنظرة، الابتسـامة والعتـب، التحديق وغضّ الطرف، الوقاحة والخجل، الجسـارة والخـوف، العيـون الصامتـة والصاخبـة، لمعـة البؤبـؤ الحـيّ النابضـة، واللمعـة الجامـدة الخاليـة مـن المشـاعر الإنسـانية. لم أجـرؤ على اسـتخدام الألـوان حتـى تعرفت إليـه... هل تظن أن علـى الفنـان أن يـكـون وقحًـا؟

- هــذا سـؤال إنسـانة فنانــة... أخشـى أن تكـوني متماهيــة بــه!

- بل تخشـى أن أكون عاشـقة له! أليس كذلك.؟

- لماذا لم تكملي دراستكَ في كلية الفنون؟

- لم يوافق على ذلك...

- من؟ جفان!؟

صمتتْ! وكنت أعرف الإجابة، لكنني سألتها كي أسمع جوابًا آخر، عن بقية الحكاية! حكايتها... كانت مصرة على إخفائها والتستر عليها منذ البدء، وعندما أسألها عن «سنوات القحط» تلك، تهرب منها للحديث عن طفولتها، وإذا سألتها ثانية، تحدثت عن علاقتها بجفان وفرج وفن الرسم والقبو المدمّر... إنها تخفي عشرين عامًا من حياتها! ربما تخجل منها، ومن يدري، قد تكون هذه السنوات مريرة، لدرجة أنها عملت المستحيل كي تنساها، وجئت أنا لأذكّرها بها، لكنها كلما ابتعدتْ عنها اقتربتْ منها! كيف يستطيع هذا الجسد النحيل الشفاف أن يحتوي سنوات الشوك تلك، التي لا يمكن احتواؤها!؟

بقيت صامتة فترة طويلة... لم تزرني بعدها! ولم تتصل بي أو يصلني منها أيّ رسالة على بريدي الإلكتروني.! لكنني -مع ذلك- لم أتوقف عن الكتابة، أو حاولت ربما، أن أكتب شيئًا يحرضها ويثير ذاكرتها المخفية؛ فتقمصتُ شخصية رسام منسي وكتبتُ ما يقارب الصفحتين، تحت عنوان خبيث هو:

فـرع الموت 201، علهـا تتذكـر فروع الأمن المرقّمة...

«منــذ وقــت طويــل -يــا ســيدتي- لم أرَ أحلامًــا ملونــة. باتــت أحلامــي كلهــا بالأبيضـ والأسـود؛ وفي أفضـل الأحـوال يهيمـن عليهـا لـون واحد هو الرمـادي أو الأصفر العكر. لسـت أدري لمـاذا وكيـف يمكـن أن يحـدث هـذا، وأنـا رسـام تضـجّ لوحاتـه بالألـوان الحـارة المزركشـة! عندما أصحـو من رمادي تصحـو معـي ألـواني الزاهيـة وتتجمـع حـولي مثـل باقـة في مهرجـان الربيـع. لوحاتـي -التـي تلتصـق بالجدار- شـبابيك مفعمـة بالضـوء والزيـت والألـوان الصاخبة، ومع ذلك تنسـل أحلامـي خلسـة في العتمـة، وتفتـك بـي.

تفاقَــم وضعــي حتــى بــتّ أشــعر أني مصــاب بمرضــ الفصــام.! هــل يعقــل أن يكــون الإنســان متفائــلًا في النهــار، متشـائمًا في الليـل!؟ لا أدري، لكنـي تأكـدت مـن ذلـك عندما اتصـل بـي -بعـد بـزوغ الفجـر بقليل- رجـل غامضـ من فرع المـوت 201 (هكـذا قـال)... جـاءفي الصـوت واضحًـا ذا نـبرة محايـدة: نحـن فـرع المـوت 201، عليـك مراجعتنـا قبـل غروب الشمسـ. هـل تأتـي بنفسـك، أم نرسـل دوريـة لجلبـك؟

قلت: لا، سـأحضر بنفسـي، وللتو...

صحـوت... ظننـت أنـه محضـ حلـم، فنمـت مـن جديد،

لكنـه اتصـل ثانية.!

اتصــلَ أم لا.؟ اتصــل، وكنــت -حينهـا- أجلـس تحـت شـجرة وحيـدة خضـراء، يحاصرهـا خريـف رمـادي يابـس. السـماء، وحتى الأوراق المتسـاقطة، تحوّل لونهـا الرصاصي إلى الأصفـر الداكن.! تحـول أم لا؟ تحـول... وطلبت منهـم العنوان، فقالـوا: عليـك أن تحضر كفنًا أبيض ومجرفة سـوداء، وتمشـي بلا توقـف حتـى تصل.! سـتقودك قدمـاك إلى المكان.

كفــن ومجرفــة وقدمــان. لا بأسـ.! يعلمــون أننــي لــن أهــرب. وكيـف أهـرب وقـد دخلـت سـن اليأس، ولا أملـك أجـرة الطريق!؟ حتـى بيتـي، المكتظ بالألوان والريش، كان مســتأجرًا.

ودّعــت زوجتـــي وألـــواني وبيتـــي، ومشـــيت. (كنـــت متزوجًـا على ما أذكـر). حملت المجرفة بيـدي. وضعت الكفن علـى عاتقي ومشـيت... منذ خمسـين عامًا وأنا أمشـي، لكني لم أصـل حتـى الآن إلى ذاك المكان.

كان الوقــت حــرارة مرتفعــة وشمسًــا مائلــة. ظهــرت فوقــي ذبابــة كبـيرة سـوداء ذات مروحــة، تشــبه حشـرة معدنيــة... صــم أذنيّ ضجيجهـا الهائل. مذ خرجـت من البيت وهي تحـوّم فوقي وتتحرك أمامي متجهة نحو الشـمال. تغيب،

ثـم تظهـر من جديـد، كما لـو أني ربطتهـا بخيط، كما لـو أنها تدلنـي علـى المسـار، تاركـة صوتهـا العجيب يطـنّ في أذني.

رجـل غريـب كان يقـف في منتصـف الطريـق؛ يحجـب بكفـه الضوء عـن عينيه وينظر إلى السـماء الغبراء، مشـيرًا بيده الأخـرى إلى تلك الحشـرة صارخًـا بأعلى صوتـه: «اقصفْ، لك اقصـف، مـاذا تنتظر!؟ لا تترك أحـدًا من هـؤلاء العرصات[1]».! عـن أي «عرصـات» يتحـدث.!؟ اقتربـت حاملًا بيـدي المجرفة فابتعـد بسـرعة عـن طريقـي؛ ظـن أن المجرفـة ملوثـة بالـدم. ابتعـد وهـو ينظر إلى الحشـرة الطائرة... خطـر لي أن أناديه، أن أسـأله عن مكان الفرع 201 لكنني عدلت، لأن النـاس يتجنبون الحديـث مع هـرِم يحمل كفنـا ومجرفة...

أمسـيت عجوزًا طاعنًـا في العمر ولم أصل. كنت أستأنـس بتلـك الذبابة، وأسـتمد القوة مـن دوامة صوتهـا الهوائي، لكن قدمـيّ لم تعـودا قادرتـين علـى حملـي، أو إرشـادي إلى المـكان الصحيـح. كنـت أظـن أنـه غـير بعيد عن فـرع أمـن الدولة، أو فرع فلسـطين... لم أفكـر، أو يخطر ببالي أن أسـتريح قليلًا؛ فقد أتأخـر ويغضـب مني رئيس فـرع الموت هذا. ولم أجـرؤ حتى علـى اسـتئجار سـيارة أو حافلة نقل. قالوا لي: عليك أن تمشـي، وأرسـلوا إلي حشـرة تراقبني وتـدلنـي على الطريق، فمشـيت

1 - العرصة: الديوث، أو الذي يحقق مصالحه الدنيئة بأساليب ملتوية

ومشـيت... لم تسـتوقفني الحواجـز أو يطلـب أحـد هويتـي. كان الناس يبتعـدون عـن طريقـي وهـم ينظـرون إلى كفنـي وبجرفتي...

لكنـي أخـيرًا توقفـت علـى الرغـم منـي، ولم أعـد أسـتطيع المزيـد، فما إن رأيت الشـجرة الخضراء حتى جلسـت تحتهـا. ليغضـب منـي فـرع المـوت ورئيسـه. دعتنـي الشـجرة كـي أجلس قليـلًا تحـت ظلالهـا، فوضعـت الكفـن في حضنـي وجلسـت... كانت شـجرة وحيدة، تشـبه تلـك الخضراء التي يحـوط بهـا خريـف رمـادي كامـل، حتـى أوراقهـا السـاقطة تجمعـت حـولي. تحـول لونها الأصفـر أيضًـا إلى رصاصـيّ غامق. الفـارق الوحيـد أن أحـدًا مـا حفـر بآلـة حـادة، علـى جذعهـا القاسـي سـهمًا يخـترق قلبًـا مسـتديرًا، وقد كُتب تحـت القلب عبـارة: فـرع الموت201.

انتفضـت. يـا إلهـي! لقـد وصلـتُ! وسـقطت عـن السـرير...

لم يكـن كابوسًـا حقيقيًـا أو محض حلـم. سـقطتُ بالفعل عن السـرير، وسـمعت صـوت ارتطامي بالأرض. كان سـريري عاريًـا، بـلا قوائـم، يدير وجهـه نحو الجـدار ويقف على سـاق واحـدة، مثـل صليـب فقد يديـه وثيابـه، وقد سـقط غطاءه في حضنـي مثل كفـن أبيض.

لوحاتي -أيضًا- كانـت معتمة...»

كان أملـي كبـيرًا جدًا بـأن يعجبها هـذا المقطع ويحرك مشـاعرها، لكنهـا لم تـرد علـى مـا كتبـت! مضـى وقـت طويل ولم تفعـل! وأظـن أنهـا لـن تفعـل أبـدًا... وإذا أردتم الحـق، وهذا كلام غـير قابل للنشر: كنت حريصًا علـى نيل إعجابها، وربما رضاهـا... لكن، يبـدو أن حرصي علـى ترويضها كان أكبر.! نعـم، ترويضهـا... لا أدري إن كانـت هـي الكلمـة المناسـبة، لكنـي لم أجـد لها بديلًا... هـل كنت مهتمًـا بقصتهـا أم مفتونًا بهـا.؟ لماذا ارتجفـت أحشـائي عندما غادرتْ، ولماذا رحتُ أسـأل، بعـد ذلـك، عـن أصلهـا وفصلهـا وتفاصيـل حياتهـا.!؟ لا أُنكـر أنهـا تركـت انطباعًا مؤثـرًا وعميقًا لدي، منـذ لقائنا الأول، هو أقـرب إلى تلـك الذكرى التـي تتغلغل في دماغك، ولا تسـتطيع نسـيانها... حاولـت -مـا اسـتطعت- أن أفهـم السـبب! أن أفهـم نفسـي.! هـل هو حب من أول نظـرة، أم شـغف عنيد؟ هل هي شـهوة عارمـة تأججـت، في عمـر خمدت فيـه الشـهوات؟ ما هو السـحر الـذي جذبنـي إليهـا، وجعلهـا تسـيطر علـى حياتـي وروايتـي.؟ كنت أكتـب بهدوء ومتعة كبـيرة، رواية جديدة تشـبهني، لكنهـا منـذ أن طرقـت بابـي غـيرت مسـار حياتـي، وخـلال مدة لا تزيـد عن فنجـان قهوة، خلخلـت كياني...

كابـرت كثـيرًا، حاولـت إقنـاع نفسـي أنهـا امـرأة مثل

الأخريات... ما هو المثير المشتهى فيها!؟ لا شيء خاص أو لافت أو شبقي، امرأة جميلة لا شك؛ لكنها نحيلة أكثر مما يجب، وأنا أحب الممتلئات.! شعرها قصير وصدرها أعجف وحوضها ضامر... أما مؤخرتها، فلم تسمح لي الظروف بدراستها، ولا أذكر أنها لفتت انتباهي على أي حال.! ما هو إذن سبب حضورها المستبد هذا!؟ لماذا بتُّ أتذكرها وأعشق كل تفصيل فيها الآن.!؟ ولماذا أصبحت لجوجًا فاقد الصبر، لا طاقة لي على انتظار ردها!؟ لكنها لم ترد ولو بكلمة واحدة، مضى شهر كامل دون رد! ووجدت نفسي مرغمًا -لا أدري لماذا- على إرسال نص آخر لا علاقة له بروايتي أو روايتها، نص غير كامل، كتبته منذ وقت بعيد، ثم ركنته جانبًا، كي أعيد النظر فيه، وهو بعنوان كلب بن كلب، حيث أتقمص شخصية كاتب معروف يخاف كلبًا مربوطًا، دربوه على فظ المظاهرات:

«منذ أكثر من ثلاث سنوات وأنا أتساءل: لماذا لا يقومون باعتقالي! فأنا معارض معروف، وسجين سياسي سابق، وناشط اجتماعي معاصر، ولساني طويل... شاركت بالمظاهرات منذ الشهر الأول، وقلت: «واحد ، واحد، واحد، الشعب السوري واحد»، وقلت «يلي بيقتل شعبو خاين، و»الشعب السوري ما بينذل»[1]... قلت كل ذلك، وشاركت

1 - "من يقتل شعبه خائن" و"الشعب السوري لا يُذل"

بـكل الواجبـات اتجاه الشـهداء والمعتقلين، وأملك كل الأسـباب التـي تخولنـي أن أكـون معتقـلًا... اكتفـوا بمنعـي مـن السـفر وعـدم تجديـد جـواز سـفري، حتـى أراجـع الفـروع الأمنيـة. وكثيرًا مـا كان الأحبة والمقربـون منـي ينصحونني أن أخفف مـن لهجتي ونبرتي في ما أنشره على صفحتي في الفيسـبوك، وغيرهـا مـن صفحـات التواصـل الاجتماعـي... ولا أخفيكـم أننـي كنت -في قرارة نفسـي- أخاف الاعتقـال.! طبعًا أخافه، فقـد جربتـه ذات يـوم، لكنـي لم أجـرب القنص من فـوق ظهر مؤسسـة حكوميـة أو مـن خـلال نافـذة غامضة. لذلـك كنت أسـدل السـتائر -أيضًـا- كـي لا يحـاول أحـد أن يتسـلى بقنصـي، وبخاصـة في عتمـة الليـل البهيـم. لكـن فرحتـي بالثـورة وأملـي بالتغيـير، وإعجابي الشـديد ببسـالة الشـبان السـوريين، المسـتعدين للمـوت، الهاتفين للحريـة والكرامة في شـوارع دمشـق وحاراتها، جعلني أكابـر وأنتصر -دومًا- على تلـك المخـاوف والهواجـس العميقة.

كنـت أنتظـر قدومهـم كل يـوم وكل ليلـة. هـم أو غيرهـم مـن الرجـال المدججـين بالسـلاح، الذيـن يركلـون الأبـواب بأقدامهم، ويقتحمـون البيوت -مع كلابهم- دون إذن. كـم مرةٍ طُـرق بابـي أو باب جـيراني، بعنـف وهمجيـة، فقلت: أتـوا، ليتبـين لي أن الطـارق هـو بائـع المـاء أو أحـد المحتاجـين.! وكـم مرة أعطيـت هويتي للحاجز وتوقعـت أن يقوموا باعتقالي

فـور رؤيتهـم صورتـي أو قراءة اسـمي! وكـم مـرة اعتقلوا أو اختطفـوا رفيقًـا لي، أو سـلّموا جثـة صديق ناشـط مثلي، قتلوه تحـت التعذيـب، وقلت جاء دوري.! لكن شـيئا من هذا لم يحدث حتـى الآن؛ بل حـدث ما هو أسـوأ ربما...

كنـت منكبًـا -ذات ليلـة- علـى كتابـة قصـة قصـيرة، عـن كلـب هاجـم رجـل أمـن، كان يدربـه علـى التصـدي للمتظاهريـن؛ بعـد أن أخضعـوه لـدورة في مكافحـة الشـغب؛ فسـمعت -صدفة ربما- صوت كلـب حقيقي يتردد عبر نافذتي المغلقـة.! في البدء ظننت أنه وهم من أوهام الحالة التي أعيشـها، لكـن تبـين أن الأمـر أعقد من ذلـك بكثير...

كانـت السـاعة قـد تجـاوزت منتصـف الليـل، وكان من الطبيعـي أن تسـمع أصـوات كلاب سـائبة في مثـل هذا الوقت، وبخاصـــة عندمـــا تتوقـــف أصـــوات القذائـــف والرشاشـــات والحوّامـات والصواريـخ... لكـن هذا الصـوت لم يكـن نباحًـا أو عـواء ذئب، بـل مقاطـع صوتية عشـوائية، هي أقـرب إلى الأنين والتوسـل والبـكاء؛ منهـا إلى نبـاح الـكلاب! أصـوات متقطعـة رفيعـة واهنـة، توحـي أنهـا لجـرو صغـير جائـع، أو ربمـا لكلب جريح...

توقفـت عـن الكتابـة وحبسـت أنفاسـي. كان الصـوت

قريبًا، يأتي من الخارج بالفعل، وليس من داخل رأسي! لم أكترث -في البداية- لهذه المصادفة العجيبة. حاولت أن أنسى وأتابع الكتابة، لكن الصوت راح يعلو ويخبو وينشج ويتذبذب، مشحونًا بالعواطف والمشاعر الإنسانية؛ كما لو أنه يناديك أو يستجير بك، طالبًا حمايتك... ولم أتوقع أن يكون هذا المخلوق قريبًا إلى هذه الدرجة. نهضت واقتربت من النافذة كي أفهم ما الذي يحدث! كنت أعيش في الطبقة الثانية من البناية، وكان الضوء مطفأ في الحي، والشارع خاليًا تمامًا من المارة، وبالكاد تبين لي، على ضوء نافذتي الخافت، أنه كلب كبير جدًا، يدور حول نفسه، محاولًا أن يخفي توتره وغضبه. توقعت أن أرى إلى جواره رجلًا! لكن عندما فتحت زجاج النافذة ودققت في المشهد، اكتشفت، على الرغم من العتمة، أنه قد رُبط وحيدًا إلى عمود الكهرباء المقابل لشقتي.! وسرعان ما شعر هو بوجودي فكف عن الأنين والدوران، ووقف في مواجهتي متحفزًا، ولمعت عيناه في العتمة، ثم نبح بقوة وشراسة مفاجئة، متحولًا إلى وحش حقيقي... أقفلت النافذة مباشرة، ورحت أراقبه من خلف شق في الستائر السميكة...

تبين لي أنه كلب بوليسي شرس، من نوع «جيرمان». أسود على ذهبي، يطوق عنقه سير جلدي فاخر. له خطم

كبير أسود ولبدة صفراء، وأذنان مثلثتان منتصبتان...
راح ينظر إلى نافذتي -مباشرة- ثم يحفر التراب بإحدى
قائمتيه، ليعود وينظر نحو نافذتي، وينبح بشدة.

إنه يشبه كلب قصتي تمامًا!! لكن... ما الذي أتى
به إلى هنا!؟ من الذي ربطه في هذا المكان!؟ ولماذا ينظر إلى
نافذتي تحديدًا، تلك النظرة المتحفّزة المتوعّدة!؟ ومع أني
أحب الكلاب، لم أشعر بالخوف يومًا، كما شعرت في تلك الليلة
المظلمة. أغلقت الستائر بإحكام، وأطفأت الضوء، وأيقظت
زوجتي التي كانت تنام مع الأطفال في غرفة النوم، وقررنا
-مباشرة- أن نخفي كل ما نملكه من وثائق وسجلات ونقود،
تعود لجمعية مدنية محلية، كنا نعمل فيها، تهتم بإغاثة
النازحين الذين دُمرت بيوتهم، وهربوا من الحرب في الغوطة.
كنا نؤمّن لأطفالهم الحليب والحفاظات والحقائب المدرسية
والدفاتر والأقلام، وكان ذلك ممنوعًا ويعد جريمة من
جرائم الإرهاب وتمويله. قمت بمسح كل ما أملكه من أشعار
وقصص ومقالات في كومبيوتري. أغلقت حسابي وحساب
زوجتي في الفيس بوك والتويتر والسكايب. كانت زوجتي
أقل توترًا مني، لكنها مع ذلك دسّت علم الثورة في كيس
أسود، ورمت به -عبر شباك المطبخ- إلى المنور...

استمر الكلب في العواء. قالت زوجتي إنه كلب، وربما

رُبـط هنـا بالمصادفـة. وقلـت: لكنـه كلـب «جيرمـان» من نوع «FARFESH» يـا عزيزتي! الكلب ذاته الـذي أكتب عنه!! من سـيربط كلبًـا بوليسـيًا نـادرًا، في عمـود كهربـاء، أمـام بنايتنا تمامًـا! وبعـد منصـف الليل! ولمـاذا يفعل ذلك!؟

اختلســنا النظــر عــبر الســتائر، ورأينــاه مــا يــزال هنـاك... يجلـس علـى ذيله ويرفـع خطمه الأسـود مسـتنفرًا، وقـد تطـاول كثـيرًا علـى قائمتيـه الأماميتـين، حتى حسـبناه رجـلًا ينظـر إلينـا؛ لـو لم ينبـح مـن جديد.

لم يكـن ذلـك كابوسًـا! كنـت واثقًـا مـن ذلـك؛ مـع أن حياتنـا تحولـت إلى كوابيـس سـريالية، في الليـل وفي النهـار، تتخللهـا بعضـ الأفعـال الواقعية العادية، التي لا يمكن حشرها مـع فصيلـة الكوابيـس، مثل شـرب المـاء والأكل والدخول إلى الحمـام... لكـن مـا إن قُرع بـاب بيتنـا بتلـك القـوة؛ حتى تحول الأمر كله إلى كابوس حقيقي... تبعه مباشرة صوت حركة وقرقعـة في المطبـخ... تقدمـت نحـو الباب بحذر... ثـم ظهرت زوجتـي وهـي تحمـل طنجـرة الحليـب الفارغـة... نظـرتْ إلي مندهشـة وسـألتني بصوت ناعـس: «ما بـك! ألم تنم بعد!؟ هل أزعجـك هـذا المتخلّف؟» لم أسـتطع الجواب... طبعًـا... اكتفيت بالإشـارة إلى البـاب متسـائلًا، فقالـت سـاخطة: «إنــه بائــع الحليـب... كـم مـرة قلت لـه أن يقرع البـاب بهدوء.!

تسمرت في مكاني... ولم يكن أمامي حل آخر! أصبح الكابوس مزدوجًا (كابوس داخل كابوس)، فأنا لست متزوجًا وليس لدي أطفال ولا غرف نوم ولا طناجر حليب! وأكبر دليل على ذلك هو أنني أنام وأكتب وحيدًا في غرفتي البائسة... ولذلك، لم أجرؤ حتى على الاقتراب من الباب...

دمشق، فجرًا

2014.10.3

لكنها -هذه المرة أيضًا- لم ترد! ربما لم يعجبها ما كتبت.!

كنتُ بحاجة إلى امرأة، كي أستطيع كتابة روايتي، وكنتُ أعلم جيدًا أن هذه الرواية لن يكون لها أي معنى، بمعزل عن تلك السنوات المثيرة التي عاشتها... كنت أمتلك فكرة غامضة حولها، وكنت بحاجة ماسة لأن تكتب هي عنها... وكدتُ أفقد الأمل، لكنها بعد مرور أكثر من خمسين يومًا؛ وعندما كنت على وشك النوم، اتصلتْ بي وسألت عني وعن الرواية.!

أخبرتها -ببرود- أنني توقفت عن الكتابة منذ مدة طويلة، فغضبتْ، وكادت تشق شاشة الكومبيوتر وهي تصرخ ماذا.! كيف!؟ من أذِن لك بهذا!؟ لماذا توقفت!؟ ولأول

مـرة، شـعرت أنهـا متعاطفـة معـي، تثق بـي وبموهبتـي... قلتُ لا أدري! ربما فقـدت الارتباط بهذه الرواية، لسـبب ما، أجهله! ثمـة شـيء ناقـص فيهـا...! إنـك تخفـين عني أمـرًا، أنا بأمس الحاجـة إليه! هـذه الرواية تحتاج إلى بوح وشـجاعة امرأة، فإما أن نـكتبهـا كمـا يجب، أو نتوقـف عن ذلك، فما الرواية إلا ذلك المنسـي، أو الكشـف عمـا نرغب في نسـيانه...!

صمتـتْ ثانيـة! بـدت كمـا لو أنهـا لم تقرأ مـا كتبت! ولم تحـاول إقناعـي بضـرورة الاسـتمرار في الكتابـة (كمـا توقعتُ أن تفعـل)؛ بـل أرسـلتْ -بعـد فـترة وجيـزة- ملفًا يحتـوي على مقطـع كبـير «ناجز»، يبـدو أنهـا كتبته خلال فـترة انقطاعها الطويلـة... واستبشـرت خيرًا، لكـن المقطع -هذه المـرة أيضًا- كان عـن جفان وفـرج، وليسـ عنها هي...

لا أدري كيـف اخترعـت هـذه الحكايـة! فمـع ثقتـي ومعرفتـي الأكيـدة، بأن جفـان، وكذلك فرج، ليسـا أكثر من شـخصيتين وهميتـين، إلا أن المقطـع كان جميـلًا ومناسـبًا جدًا للروايـة، وهـو قبل هـذا وذاك، منسـجمًا تمامًا مع مـا كتبته أنا خـلال خمسـين يومًا.

× × ×

كان يجـب أن أمـوت، لأني فقـدت إنسـانيتي. تمكنـوا مـن إذلالي وكسـر إرادتي وكرامتي، خـلال بضع أيـام وليلة.

مـــلأت فـــرع التحقيـــق العســـكري بصراخـــي الهســـتيري، وشـحذت منهم الشـفقة والرحمة... جريمـة التظاهر والهتاف للحريــة، لم تعـد تـكفيهـم. اعترفـت لهـم بجرائـم لم أرتـكبهـا، وجرائـم أخـرى أنـوي ارتـكابهـا في حياتـي، بالاشـتراك مـع عصابـة مكونـة مـن أبـي وأمـي وإخوتـي الصغـار...! طالبوني بالمزيـد. ولم أعد قـادرًا على التحمّـل أكثر. جروحـي تقيحت وبدأت تنزّ، والسـجان صـار يضع على أنفـه كمّامة، قبل فتح زنزانتـي. تمـزق جلد قدميّ إلى نتف، بعـد أن تورّم، وانفجرت منـه كريـات الدم والقيح. لم أعـد أسـتطيع الوقوف. وما عدت أسـتطيع أن أحبـو على أربـع، أو أزحف على بطنـي، كما كنت أفعـل من قبـل. سـحقوا ركبتيّ. علقوني على السـلّم. كسروا ظهـري بالكرسـي القـلاّب. وصار الجلاد يشـحطني شـحطًا إلى غـرف التعذيـب مثل كيـس ممتلـئ بالعظـام والقيـح. أحضروا أخيرًا أوراقًـا بيضاء، لوثـوا أصابعي بالحبر الأزرق، وطلبوا إلي أن أبصـم عليهـا، فبصمت. هم من سيسـجل الجرائم المنسـوبة إلي كلهـا، والتي ستسـهل على أي قاض عادل، أن يحكم بالإعدام علي.!

لـو أسـتطيع الآن إيقـاف قلبـي عـن العمـل، لفعلـت... لو أسـتطيع ثَقـب رئتـيّ أو دقّ عنقـي بيـدي، لـكان ذلـك أفضـل طريقـة للمـوت الذاتـي الهـادئ. لكـن أعضاءنـا الغبيـة بـلا أخـلاق أو رحمـة، تعمـل دون إرادة منـا، ولا تشـعر بالخجـل أو

الـذل مثلنـا... لا يهمهـا إن كنـتَ تعسًـا، متفائـلًا أو متشـائمًا، شـجاعًا أو جبانًـا. لا يهمهـا إن كنـت مسـلوخًا أو محـروق الوجـه والأذنـين بالكهربـاء أو لهـب الأوكسـيجين... وظيفتها الوحيـدة أن تبقيك حيًا حتى لـو تعفن لحمك. والموت لا يأتيك، لا يأتيك، ولا تسـتطيع أنتَ أن تذهب إليه متى شـئت، ليس لأن الحياة مقدسـة، مصانة بـإرادة عليا، لا يحق -حتـى لصاحبها- الاعتـداء عليهـا؛ بـل لأنـك لا تملـك الوسـيلة إلى المـوت.

«والله لخليك تشـتهي الموت ومـا يجيك يا حقير»...

قالهـا المحقـق وفعـل. ولم أصدق مـا قاله، حتـى قادتني الوحشـية إلى هـذه الـدرك مـن الإحبـاط والقنـوط والاشـتباه بإنسـانيتي. من كان يظن أن هذا المبتسـم الصلـب المفعم بحب الحيـاة والتفـاؤل، سيشـتهي المـوت يومًـا ولا يجـده!؟ لم يكـن لدي سـمٌ أو حبل أو أي أداة حـادة. صادروا كل الأدوات التي تسـهّل علـي الموت. لـو كنـت أملك مشـبك شـعر، لمـا اكتفيت بحفـر عينـي، كمـا فعل «الملك أوديـب». صادروا ربطـة عنقي وحذائـي ونظارتي وحزامي وسـاعة يـدي... ووضعوني عاريا في زنزانـة عاريـة ضيقـة، لا أسـتطيع حتى تحطيم رأسـي على جدرانها...

عبـارة أخرى قالها المحقق ولا أسـتطيع نسـيانها:

«والله لخلـي الذبّان الأزرق ما يعـرف وينك يا كلب»...

هــذه العبــارات لم تكــن مخصصــة لي وحــدي. قالهــا المحققـون لجميـع الضحايـا. وقبلـت التحـدي، مـع أني لم أكـن أفهـم ما هـو المقصـود بحكمة الذباب تلـك. ولم يخطر على بالي أن يكـون ثمـة ذبـاب أزرق.! رأيـت فراشـات مـن كل الألـوان: بيضـاء صفـراء بنفسـجية حمـراء سـوداء... لم أسـمع بالذباب الأزرق مـن قبل. علمت في ما بعد، أنــه ثمة ذباب أخضر -أيضًا- مختصـ بالمقابـر والجثث...

كان يجـب علي أن أتحول إلى جثة بأسـرع وقـت، وليفعل بــي الذبّــان الأزرق أو الأخضـر مـا يشـاء... تلمســت عنقــي وأوردتــي. لـن أسـتطيع خنـق نفسـي بيـدي، أو قطـع وريدي بأسـناني. يحتـاج ذلـك إلى وحشـية لا أملكهـا. وهـؤلاء ليسـوا يهـودًا كي تحاربهـم بالإضراب عن الطعام. هؤلاء شـركاؤك في الوطن، لكنهم خبثاء أشـرار بلا شـرف أو ضمير. وهم أسـوأ من الوحوشـ الضارية، ويملكون خيالًا أوسـع من خيال إبليسـ. إذا لم تـأكل قطعة الخبـز اليابسـة التـي يرمونها إليـك، يتضاعف عذابـك، وقـد يجبرونـك علـى ابتـلاع فـأر أو صرصـور... غير مسـموح لـك أن تمـوت مـرة واحـدة، وعندمـا تطلـب. حاولـت كثـيرًا أن أفعل ذلك وفشـلت...

لكنــي -ذات مــرة- ســمعت حفيفًــا، في آخــر الليــل.!
كنــت وحيــدًا، لا رفيــق لي إلا القوارض، ولا قريــب ســوى الحيطان اللزجـة والعتمـة... آلامـي المبرحـة تمنعني مـن النوم، وكنـت أود لـو أنـام إلى الأبـد، قبـل شـحطي إلى التعذيـب مـن جديـد. ظننـت في البداية أنه حارس يصيـخ السـمع ليطمئن إلى أنينـي. كان الحفيـف خجـولًا مرتبـكًا خائفًـا مثلـي، لكنـه مجتهـد... تحفـزت أخـيرًا وزحفـت نحـو البـاب مـترددًا. لم يكـن الصـوت قادمًـا من الممـر، بل من خلـف الجُـدر الكتيمة... وعلى الرغـم مـن العتمـة، تمكنـت من تحديـد المـكان، ورحت أتلمسـه بأصابعـي، وأنـا لا أدري مـاذا علـي أن أفعـل... وكـم كانـت دهشـتي كبـيرة عندمـا شـعرت بمسـمار رفيع يخرج مـن ثقب في الحائـط، وينكـز كفـي، ثـم يـبرز بالتدريـج كمـا لـو أنـه يقـول لي اسـحبني... تراجعت إلى الخلف، ولم أجرؤ على لمسـه. تحسسـت المـكان ثانيـة، لكن المسـمار اختفـى فجأة، وخرج من الثقـب هواء حار. وضعت أذني على المـكان، أحد ما خلف الجدار كان ينفـخ الهـواء مـن أجلـي. وبـدأت أسـمع من خـلال الثقب أصواتًـا وهسهسـة، لم أكن أتوقع سـماعها. كانت تقول أشـياء غـير مفهومة. الشـيء الوحيد الذي فهمته هو أني لسـت وحيدًا معـزولًا عن هذا العـالم، كما كنت أظـن. لم يكن الثقـب حديثًا. وتبـين أن المـكان ملـيء بالثقـوب والأرواح... بـرز المسـمار مرة أخـرى، وتقـدّم في الثقـب بسـهولة؛ حتى سـقط علـى الأرض.

لا أدري مـن الـذي أرسـله.! لم يكـن طويـلًا، كمـا يجـب لعبور جدار سـميك. ثمة مسـمار آخر، أو شـريط معدني، كان يدفعه كـي يصـل إليّ. مسـمار حقيقي صلـب مدبب ودافـئ، لكنه لم يكـن صالحًـا أبـدًا للانتحار. لأن قـوة جديدة دبت في جسـدي وروحي.

تأكـدت يومهـا أن الجـدار مهمـا كان سـميكًا ومتينًـا، لا بـد أن يكـون فيـه ثقـب أو خرم مـا. وفهمـت أنه يجـب عليّ بـدوري، أن أبـدأ بثقـب الجـدار المقابـل. وبدأت...

هـذا المقطـع وجدتـه بـين أوراق جفـان المنسـية، التـي تركهـا في حضنـي...

لا أعـرف الشـيء الكثـير عـن طفولتـه! كان بارعًـا في رسـم العيـون، وتم قبوله في كلية الفنون، بنـاء على ما قدمه من مشـاريع رسـمها بقلم الرصاص والفحم، مع أنـه أتقن التلوين، بأنواعـه وتقنياتـه كلهـا، وبخاصـة المائـي، ومـع أن مشروع تخرجـه كان لوحـة زيتيـة مدهشـة، غـير أنـه ظـل يحنّ إلى الرسـم بالأبيضـ والأسـود... لكنهـم أخـذوه بغتـة، وباتـت مشـاريعه كلهـا سـوداء... صمـد بضـع سـنوات في الاعتقـال، وهـذه السـنوات بالتحديـد، كانـت كفيلـة بتحطيمه! حتى فـرج الـذي كانـت مأسـاته أكـبر مـن أن تُحتمـل، لم يتمكن من

مساعدته، عندما قرر أن ينفصل عن هذا العالم ويغيب.

بعد نقلهما من سجن تدمر المرعب، واجتماعهما في سجن صيدنايا العسكري، رآه لأول مرة في ساحة التنفس، نظر إليه مطولًا، كما لو أنه يعرفه منذ مدة طويلة! ارتبك الاثنان، ثم، لا أحد يعرف لماذا تعانقا... كان فرج قد نُقل للتو إلى جناح جفان، مع مجموعة من الأحداث والمقعدين من جماعة الإخوان المسلمين. لم يعرف أحدهما الآخر طبعًا، ولا يربطهما أي رابط، حزبي أو عائلي؛ ففرج كان مخبأ في مهجع خاص بالأطفال في سجن تدمر، ولا أحد يستطيع أن يصدق، أن جفان تعرف إليه من خلال صدى صوته ذاك، الذي سمعه في فرع التحقيق العسكري، منذ خمسة عشر عامًا مضت، وما زال يطنّ في رأسه حتى الآن.!

كان -حينها- شابًا وكان فرج طفلًا صغيرًا، أمضى ست سنوات من طفولته، في زنزانة للنساء! ولد في الفرع، بعد شهرين من اعتقال أمه. كانت في شهرها السابع -كما قيل-، عندما دهموا بيتها واقتادوها رهينةً، عوضًا عن والده الذي اختفى فجأة في مطلع الثمانينات من القرن العشرين... وعندما اختفت الأم بدورها من فرع التحقيق (ويقال إنها اغتصبت وقُتلت تحت التعذيب)، وضعوه في زنزانة النساء، ثم نقلوه بعدها إلى سجن تدمر العسكري، ووضعوه في ذلك

المهجـع المنسـي الخاصـ بالأطفال.

كان اسـمه فـرج، ويقـال إن أمـه لم تكـن معروفـة، ولم تكـن حاملًا، بـل صبية جميلة في العشرين من عمرها، تدرس الهندسـة في جامعـة دمشـق. اغتصبهـا «المعلـم» أولًا، وفتـح الطريـق أمـام عشرات الجلادين الذيـن تناوبوا عليهـا من بعده، مئات المرات.

هـو لا يعـرف إن كانـت لـه أم مغتصبـة وأب مجهـول! لم يفكر في الأمر حينها.! كل واحد من السـجانين كان بالنسـبة إليـه أبًا، يناديـه «ابَّهْ» وكل واحدة من النسـاء اللواتي عاش معهـن، كانـت أمًا أو جـدّة، يناديهـا «امّهْ»... وعندمـا نقلوه من الفـرع، كان الوحيـد الـذي فقـدَ عشرات الآبـاء مـن الجلادين، وتسـعَ أمهـات رهينـات، بعضهـنّ تجاوزن السـبعين مـن العمر... كل واحـدة منهن وضعتـه في حضنها، وأرضعتـه حليبًا وهميًّا مـن صدرهـا الجاف، أو مـن خرقة مبللـة بالماء والسّـكّر، كانت تعصرهـا في فمـه... كل واحـدة حملتـه وشـطّفته وحفّظتـه وحكـت لـه الحكايات وهدهدته، وفي حضـن كل واحدة كان ينـام ليلـة بالتنـاوب، ويمنـح كل واحـدة منهـن فرصـة نادرة لممارسـة الأمومة والحنان.

ويقـال، إن بـاب الزنزانـة فُتـح ذات ليلـة، دون سـابق إنـذار، وأطـل أحـد الحراس المناوبـين، حاملًا بـين يديـه لفافة

بيضاء متسخة وضعها في العتبة، مع كيس صغير من السكر، وقال: «أم سعيد، استلمي»، ثم أغلق الباب وغادر مسرعًا دون شرح.! وسرعان ما تلقفت العجوز اللفافة وفهمت أنها تضم رضيعًا في أسبوعه الأول؛ عندما صرخ، لكنها لم تفهم سبب وجود السكر الذي كان مخصصًا لغذاء الرضيع... ضمته أم سعيد (أكبر السجينات سنًا) إلى صدرها، وأطلقت عليه اسم فرج الله.

× × ×

ظلّ جفان يرتجف كلما سمع صدى صوته، حتى رآه يدب في الممر.! لم يتوقع أن تكون القسوة غبية لهذه الدرجة! تبين أنهما زميلان! سجنا معًا، في مكان واحد تحت الأرض، اسمه فرع التحقيق العسكري، وأن ذلك الصدى الذي كان يملأ الممر هو صدى لصراخه، إنه طفل حقيقي معتقل! طفل من لحم ودم، عاش على الماء والسكر وفتات الخبز...!

يومها، كان جفان في العقد الثاني، وفرج في الثانية فقط من عمره. لم يكن قد رأى شجرة في حياته. عرف البيوت والنوافذ، عندما نقلوه إلى سجن تدمر. هناك فحسب، ومن خلال النوافذ العالية وقضبان الحديد، تعرّف إلى السماء الزرقاء وضوء النهار، وسمع لأول مرة زقزقة العصافير التي تمتلك شجاعة نادرة؛ إذ تقترب وتقف على حافة نافذة

مرتفعة، لمهجع مليء بالأطفال...

فرج الله الحزين صار اسمه. أصغر معتقل على وجه الأرض! لقيط مكتوم النسب، لا أحد يعرف أباه ولا أمه. كان الحراس ينادونه «عرسا»، ولا أحد يعلم متى وكيف كبر وتعلم الزحف والمشي والكلام.

بعد الثالثة من عمره، راح يدرج بين الزنازين، إذا سمحوا له بالخروج... يفتح ذراعيه ويركض، وهو يصرخ بصوته البريء: «عرساااا... عرساااا». كان الجلادون يلعبون معه ويتسلون به. لم يكن يعرف كلمة «عمو» أو «بابا»..! وحدها لفظة «ابَّهْ» كان يشير بها إلى الجلادين! ثم راح يردد لغتهم؛ فلا يحفظ غير الشتائم وعبارات الزجر والتحقير: «ولا»، «حمار»، «حقير»، «عرصا»، «منيك»[1]... أو لغة الضحايا والمعذبين: «لا...»، «دخيلك»، «ما دخلني»، «حاضر سيدي»... كانت كلمة «عرصا» تطربهم! وهو يلفظها بالسين «عرسا»، فأطلقوا عليه هذا اللقب، وسموه هكذا في سجلاتهم.! وعندما أصبح في سن المدرسة، نقلوه إلى تدمر، ووضعوه في مهجع مخصص للأطفال.!

من مِن المعتقلين لم يسمع صوت «عرسا» أو يراه خلسة من شقوق أبواب الزنازين، وهو يلبس حفاظًا رخيصًا، أكبر

---

1 - كلمات بذيئة جدًا باللهجة الشامية...

بمرتين من رأسه، صنعته النساء من الخرق البالية، أو يزحف عاريًا تمامًا في الممرات، مثل فروج منتوف، قبل أن يتعلم الدبدبة[1]، ثم ينتصب على قدميه ويمشي مستعينًا بجدران الزنازين وأبوابها؟ من منهم لم يسمع صدى صوته وهو يسدر في هذا المكان الأبكم!؟ ومن يستطيع أن ينسى ذلك النداء الممطوط: «عر... ساااا...» وتأثير صداه العجيب على المعتقلات والمعتقلين.؟

كان ذلك أصعب أنواع التعذيب! وبخاصة على جفان. لم يكن معنى الصوت هو الأهم بالنسبة إليه، بل وجوده في هذا المكان.! ما شغل باله أكثر، هو صدى صوته؛ تلك الذبذبات الآتية من الغيب، التي تصبح أكثر حضورًا، عندما تصطدم بالجُدر وتتكسر على قضبان الحديد، ثم تتلاشى متأوهة... كيف يمكنه أن يرسم ذلك الصوت؛ صوت آدم الصغير، الذي طرد من السماء من دون حفاض أو خرقة، فارتطم بالأرض، بعد ولادته مباشرة!؟ كيف يمكنه أن يجسد نداء طفل معتقل، يلثغ بثقة واطمئنان، ينادي الناس بفرح المقبلين على الحياة: «يا... ناث... يا... عالم... عرساااا...» ماذا يريد آدم الصغير من هؤلاء الناس، هل يعرفهم؟ وهل هو بحاجة إليهم!؟

---

1 - الدبدبة: مشي الأطفال على أربعة، باللغة الشامية الدارجة

كان صغـيرًا، والبهــو واســع، وصوتــه هــو المهيمــن في فـرع التحقيـق! كل شـيء ضيّـق هنـاك، إلا البهـو المخصص للتعذيـب! وكان يطيـب للطفـل أن يحبـو في ذلـك البهـو، بعـد حفـلات التعذيـب، وكثـيرًا مـا كان يلـوث يديـه وركبتيـه بالدم...

رآه آخـر مـرة في الفرع عندما كان في الخامسـة من عمره، وسـمعه وهو يصـرخ معترضًا على أمهاته التسـع «ما بدي... ما بـدي...» ولم يلتـقِ بـه بعدهـا... مـا الـذي كان يرفضـه هذا الصغـير؟ مـا الـذي كان يريـده!؟ طفـل جميـل أشـقر، شـاءت الأقـدار أن يـرى النسـاء والرجـال عرايـا، يعلقـون ويجلدون، أن يسـمع صرخـات الوجع الآدمـي، عوضًا عن ترانيم السـرير وقصصــ الأمهات والجدات.

أصبــح الآن مراهقًــا، طويـــل القامـــة، ممشـــوق القـــد، مفتــول العضــلات، خشــن الصــوت، شـفتاه حمـراوان، نبـت فوقهمـا زغـب كثيف. عينـاه واسـعتان مثل عينـي عجل أرعن، بياضهمـا ناصـع، مقوس، بلـون أصـداف بصّـارة جوالة، يبرق فيهمـا ذكاء فطـري. يضـيء العتمـة، عندمـا يفتحهما دهشـة، وترقص فيهما حدقتان من فحم موشـحتان بعسـل الصخر... أصابعـه تشـبه -إلى حـد كبـير- أصابـع جفـان، وابتسـامته -كذلـك- سـاخرة مراوغة...

ما إن قال له «أنا اسمي فرج» حتى تعانقا، وانهارت الأسئلة كلها وتصدعت. ! عرفه للتو، عندما علم إنه كان في فرع التحقيق العسكري، وكاد يهتف «عرسا»، لكنه أحجم واكتفى بعناقه من جديد... أصبحا صديقين تربطهما علاقة فريدة، على الرغم من أن كل منهما كان يعيش في مهجع مستقل، فجفان محسوب على «الشيوعيين» وفرج الله محسوب على «الإخوان المسلمين»، شاب منفتح تواق للعلم والمعرفة، كثير الأسئلة والتساؤل والتعجب، لدرجة أنهم لقبوه بـ «إشارة التعجب المبتسمة»! كان شبه أميّ، فعلمه جفان القراءة والكتابة والخط، بالعربية والفرنسية، وكان يعشق الرسم، فأمّن له الأوراق والأقلام وعلمه الرسم والنحت، وصار كل منهما لصيقًا بالأخر، لدرجة أنك لا تستطيع أن تراه بمفرده، وأخذ يناديه عمي، لو لم يعترض جفان على ذلك.

نضج خلال مدة وجيزة، وتفتقت مواهبه، وبخاصة في الحفر على الخشب، تعلم الإنكليزية وتفوق بالفرنسية على أستاذه، خلال عام واحد! حتى أن مدير السجن صار يستدعيه لتعليم أولاده أو ترجمة بعض الأوراق وعناوين الكتب المبهمة التي يحضرها أهالي المعتقلين! وكان جفان قد رفض طلب المدير، فعوقب بالعزل لمدة أسبوع، لكنه شجع

فرجًا علـى القبول.

راح يقـرأ الكتـب كلها، ويناقشـها، بعـد أن كان متحفظًا لا يقـرأ إلا الكتـب الدينيـة! وقـد أعطـاه جفـان -مـرةً- كتابًا ماركسـيًا «عشرة أيام هزت العالم» للصحفي الأمريكي جون ريـد، لكنـه أعـاده إليـه بسـرعة، وقـال إنـه لا يقرأ مثـل هذه الكتـب، لأن صاحبهـا كافـر! فأختار له كتابًـا آخر هو رواية زوربـا اليونـاني، فقـرأه بنهم أكثر مـن مرة، هـو ورفاقه، وطلب المزيـد، علـى الرغـم مـن أن صاحبـه نيكوس كزنتزاكس، كان «أشـد كفـرًا ووقاحـة» مـن الأمريكـي جـون ريـد، لكن هـذا اليونـاني السـاحر، كان يعـرف كيف يهـدم الحواجز بين رواياتـه والناس الذيـن لا يشـبهونه ولا يتفقـون معه.

ذات يـوم، في سـاحة التنفس، أمسـك جفـان برأسـه فجـأة، وراح يـدور حـول نفسـه وينحني نحـو الأرض، دخل مسـرعًا إلى المهجـع، قبـل أن يسـقط، ولحـق بـه فـرج متلهفًا...

كانـت نوبـات هـذا الوجع المفاجـئ، قد تكـررت مرات عديـدة قبـل الآن، لكـن جفـان كان يصـبر ويكابـر، ويحـاول جاهـدًا الاحتفـاظ بهيبتـه، والمحافظة على سـره، لكنـه اليوم -ولا يعـرف لمـاذا- وجـد نفسـه مدحـورًا مرغمًـا على كشـف سـريرته لفرج.!

بـدأ الوجـع منذ أن سـمع صـوت «عرسـا»... منذ أن رآه هنـاك، يزحـف فوق الـدم! ولم يشـفى منـه... تفاقمـت نوبات الوجـع بعـد نقلـه إلى تدمـر... كان يخفـي الأمـر عـن رفاقه، فينـزوي ويصمـت، كي لا يلاحـظ أحد ضعفـه، علمًا أن الجميع قـد سـمع ذلك الصوت ونسـيه مـع الأيام، لكـن ذهوله لم يكن بإرادتـه؛ بـل بقـوة تفوق طاقتـه، تجعلـه يـزم شـفتيه وعينيه، ويـكاد يبتلـع لسـانه ويختنـق... فـإن سـد أذنيـه هاجمتـه الصورة، وإن أغمض عينيه سـمع صوته ورآه بشـكل أوضح...

نظـر فـرج بخـوف إلى وجـه جفـان المشـوه وعينيـه الزائغتـين، وراح يبكـي حائـرًا مثـل طفـل: «جفـان... عمـي جفـان... ما بك!؟» كان المهجع فارغًا، لكن جفان حشر كتفيه في الزاويـة وتكـور علـى نفسـه، كجنـين مكسـو بالطحالب.!

اعـترف وهـو يرتعـد، ويديـر وجهـه نحـو الجـدار، أنـه رأى طفـلًا صغـيرًا -عندمـا كان في فـرع التحقيـق- يحبـو فوق البـلاط الملوث بالـدم... وأنه سـمع صوتـه... ومـا زال الصدى يهاجـم جمجمته، بين حين وآخـر... ويدق... يدق، يدق مثل مطرقـة مـن اللباد علـى صنج نحاسـي كبير...

لم يكـن فـرج يعلـم أنـه هـو المقصـود، وأن هـذا الحديـث القصـير الـذي دار بينهمـا، سـيكون قاتـلًا لصديقـه.! وكيـف

يدرك ذلك وهـو يعتبر جفان نموذجًا للصـبر والصمود والوعي. إنــه القـدوة بالنسـبة إليـه! النافـذة الوحيـدة التـي أطـل من خلالها علـى العـالم... عندمـا التقـى بـه، شـعر أنــه ولـد مـن جديـد... وكـي يخفف عنـه الألم، تسـاءل مازحًا: ومـاذا أقول أنـا إذًا.؟ لقـد ولـدت في فـرع التحقيـق العسـكري، ولا أعرف مـن هو أبي، ولا أمـي.؟ كانوا ينادونني «عرسـا»، لا أذكر من سـماني فـرج الله! ربمـا واحدة مـن تلك الأمهـات اللواتـي كنت أعيش معهن في مهجع النسـاء... هذا سـر لا يعرفه أحد غيري.! عندمـا نُقلـت إلى سـجن تدمر، سـألوني هنـاك عن اسـمي، قلت لهم «عرسـا»! فضحكوا كثيرًا، ثم أمسـك بيدي شرطي كبير أحمـر، وأدخلنـي إلى مهجـع خاص بالأطفال! كنـت أصغرهم سـنًا وحجمًـا.! التّهمة الموجهة إليهم، هي تلقي دروس فيزياء وكيميـاء ورياضيـات في أحـد الجوامع، وعلى أيدي أسـاتذة من الإخـوان؛ أمـا تهمتي، فلـم تكن معروفة... ربما بسـبب اسـمي! وربمـا ضمـوني إليهم لأنهـم لم يجدوا مكانًـا آخـر يضعوني فيه! لم أكـن أعلم مـا معنـى «جامع» ولا إخـوان... كم كنـا نتمنى لـو يحولـوا مهجعنـا إلى مدرسـة، لكنهـم لم يفعلـوا... كانـوا ينقلـون مـن بلـغ منـا مبلـغ الرجـال إلى مهجـع للكبـار، وعندما كبرت نقلـوني إلى هنا...

كان جفـان يسـتمع وهـو يضغـط رأسـه بكلتـا يديـه، كـي لا يتفـكك، وفجـأة، صـرخ كالمجنـون: «بسـ... بسـ...

خلص... بعرفك أنا... عرفتك من لما شفتك... بعّد هيك... بعّد»... دفعه جانبًا، ثم خرج من المهجع هائجًا وهو يصرخ مثل ذاك الطفل رافعًا يديه: «يا ناث... يا عالم... أنا عرساا... عرسا أنااا...»

كان باب الجناح مفتوحًا على ساحة التنفس؛ لكن جفان لم يخرج إلى الساحة، بل هجم على أحد أفراد السخرة الذين يشطفون بهو السجن، بماسح ذات عصي طويلة؛ فاستولى على عصاه، ووقف في منتصف البهو، متحديًا، خارجًا عن طوره، ثم راح يهتف والزبد يخرج من فمه: «يا أولاد القحبة... يا شراميط... كس أختكم على أخت مفتي الجمهورية... ولك طز فيكن وبرئيسكن الجحش يا قوادين... والله لإلعن أبوكن يا عرصات... ولك خذوا... خذوا... خذوا!! ووجه عصاه نحو الحراس، وراح يطلق عليهم، من فمه، وابلًا من الرصاص، حتى القوا القبض عليه...

- 5 -

مقطـع جميـل جعلنـي أصـدق حكايـة هـذا الثنائـي الغريـب (جفـان وفـرج الحزيـن)! أعجبتنـي هـذه المفارقـة، عندمـا أراد فـرج أن يخفـف عـن جفـان فدفعـه -مـن حيـث لا يـدري- إلى الخـروج عـن طـوره! أنـه يشـبه -إلى حـد كبـير- بعض الحـالات التـي وصفتهـا في قصصـي عـن المعتقلين... جلّ مـا كتبتـه في السـابق، كان ينتمـي إلى هذا العالم الذي سـموه «أدب السـجون»·! وكنـت قـررت أن أخـرج من هـذه الدائرة الجهنميـة إلى فضـاء أرحـب، لكـن القـدر -ربمـا- قـادني إلى هـذه المـرأة التـي عرفـت بالمصادفـة أنها لم تكـن معتقلـة، بل زوجة ضابـط كبـير من ضبـاط الأمن، تم ترفيعه إلى رتبة لواء شـرف، بعـد مقتلـه، في ظروف غامضـة، عـام 2012...

لم أكــن أعرفهـا مـن قبـل، فوجئت برسـالة منهـا، ترغب فيهـا أن تتعـرف إليّ، وتقـول إن لديهـا حكايـة مخيفـة، تريـد أن تكتبهـا كـي ترتـاح. وباعتباري كاتـب روايات ومسلسـلات، فقـد وصلنـي قبلهـا الكثير من هـذه الرسـائل النسـائية التي تفضـي -عـادة- إلى سرير سـهل، يخفـي تحـت غطائـه الرقيق مشروع كتابة مسـتحيل!

لكــن اســمها الغريــب «طهــران زهــر البــان»، لفــت انتباهـي حينهـا، ومـا أدري -حتـى الآن- إن كان اسـمًا حقيقيًا أم مسـتعارًا، وهـل هـو مأخـوذ مـن الطّهـر أم تيمنًـا بعاصمـة الجمهوريـة الإسـلامية «تهـران».! ظننت -بـدءًا- أنها فارسـية، لكـن تبين أنهـا عربية بامتياز، تسـكن في مكان محترم بدمشـق. ولم أكــن أعلـم أنهـا شـخصية إشـكالية! حــذرني منهـا مــن دلّهـا علـي، بعد تورطـي معهـا! وطلـب إلي أحـد الأصدقاء عدم الاقـتراب مـن عش العقـارب هـذا! وعندمـا اسـتغربت كلامه؛ كشـف لي عن اسـمها الحقيقي، وقصـة حياتها الغامضة، واسـم زوجهـا المرحـوم، وكيـف قتل بتفجـير غامض في دمشـق...! لم أصدق ما سـمعت، وزادني هـذا إصرارًا على فكرتـي، فما الذي تحتاجـه الروايـة أكثر من امرأة تريـد أن تبوح بحياة ملتبسـة كهـذه.!؟ لن أذكر اسـمها الحقيقي طبعًا، فقـد يُعد هذا خيانة شـخصية ووطنيـة! ثـم إن الأسـماء -في حالـة كهـذه- تصبـح بـلا قيمـة ولا معنى. ما أطمح إليـه، هو إلقاء الضوء على مسـيرة

امـرأة اسـتثنائية غامضـة، لا أكـثر... لم أدرك أنهـا سـتكون مغامـرة كبـيرة، وخطـيرة جـدًا، لا علـيّ وحـدي، بـل عليهـا كذلـك؛ فالمرأة التي تتـزوج ضابط أمن مخيـف لهذه الدرجة، تتحـول حياتهـا إلى سـر من أسـرار الدولـة، وتصبـح ذاكرتها ملـكًا للمؤسسـة الأمنيـة، لا يُسـمح بالحديـث عنهـا، حتى بعد مـوت زوجهـا، فمـا بالـك إن فكرتَ بـأن تصبـح عشـيقها! أو أن تنـام معها.!

قدمـت نفسـها باعتبارهـا امـرأة حـرة جريئـة متمردة، لكنهـا مظلومـة وجريحـة،! تهجمـت على المجتمـع الذكوري: علـي وعلـى الكتّـاب العرب! ادعت أنهـا لا تقـرأ كتبهم، لأنهم جبنـاء، مسـكونين بالخـوف، ولا يجـرؤون على قـول الحقيقة... (وربمـا تـكـون محقة في بعض ذلك)، لكن سـرعان ما تبين أنها -هي أيضًـا- أكـثر عجـزًا وخوفًـا وقلقًا! مسـكونة بالرعـب، لا تجرؤ علـى قول الحقيقـة، وتـكتفـي بالاختباء خلـف المنامات، وبراقع النضـال النسـوي وتحـرر المـرأة، وفـن الرسـم والنحـت، وربمـا «المعارضـة السياسـية»...

تمكنـتُ مـن الإلمـام بحكايتهـا، لكـن «قيـلًا عن قـال»، ولم يكـن هـذا «القيـل» يخلـو مـن الكـذب والتهويـل والتزويـر! قيـل لي إن زوجهـا قتَـل واغتصب الكثـير من النسـاء والرجال، وارتكـب جرائم حرب بحـق الأبرياء... وقـد وجدتها فرصة

مناسبة جدًا للكشف عن هذا العالم الوحشي... وسيكون مدهشًا -حتمًا- إن كتبتُه هي بنفسها، ليس بدافع الصدقية والواقعية فحسب، بل بدافع التّمكن والمعرفة، وبحثًا عن بطانة تلك الخصوصية المبهمة السريالية المريبة التي تشوب حياة هذا النوع من البشر، والتي لا نعرف عنها إلا القليل...

كثيرًا ما كنت أتساءل مثل غيري من السوريين والعرب: كيف يعيش جلاد -من هذا النوع- مع زوجته وأولاده؟ ماذا تعني له كلمات الشرف والإخلاص؟ كيف يمارس الحب والجنس؟ هل يعشق الجمال ويتلفظ بكلمات الإطراء والحب والغزل؟ هل يتزوج وينجب صبيانًا وبناتًا، ينادونه بابا، مثل الآخرين؟ هل هو رجل طبيعي، أم يعيش حالة فصام محكم، بين القسوة والرقة والصرامة والرحمة والجريمة. وكيف يوفق بينها؟ هل يشعر بالندم أو الغيرة أو الحنان أو الغبن أو الحزن أو الحنين أو الإحباط؟ هل يحلم في الليل ويتألم في النهار ويشعر بالخوف من العقاب مثلنا؟ هل جرب نار الفراق والغربة والانتظار، وهل يعرف معنى الشوق والحنان والرحمة والصداقة والقيم الإنسانية...؟ مئات الأسئلة راحت تدور في رأسي، وكنت بحاجة لكشف بعضها والبوح به، أو ملامسة حاشيتها على الأقل.

حاولت جاهدًا دفع تلك الرسامة «طهران» في هذا الاتجاه، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل! كانت تهرب من هذا عمدًا، ولا تفكر به! وبدا واضحًا لي أنها «مختونة» غير قادرة على الوصول إلى الذروة. كانت تكتفي بحكايتها المشتهاة، شديدة الذاتية، التي تشوش على الحكاية الأصلية.! ربما كانت تحلم أن تكون فنانة وعاشقة وربما ثائرة.! وكثيرًا ما كنت أهدد بالانسحاب من المشروع، ووقف العمل فيه، واعتبار هذا الجهد نوعًا من التمرين على الكتابة، فتسارع إلى إرسال مقطع جديد... ولست أدري لِمَ لم أفكر -من جهتي- في استمالتها كأنثى بشكل واضح وبلا مواربة.! كانت تستهويني، وقد فكرت بها، لكنها صدتني من دون أن تقول لا، وكبحت رغبتي بطريقة ما!

حاولت مرارًا استدراجها إلى بيتي، لكنها بقيت تكتفي بالمراسلة وتماطل... كانت مستعدة دائما للحديث عن غيري، فاستعارت جفانًا، ليكون عقبة بيننا! قال جفان: «الرسم طقس سري، لا يحق لأحد أن يراه». وقال جفان «الألوان قشرة رقيقة، أو غشاء ماكر، حالما يراه الضوء يتمزق ويحترق.» وقال جفان: «كنت أظن أنني أرسم صورة للأنوثة... محض صورة لامرأة سكنت في جمجمتي، لكنني كنت أخشى أن أعرّضها للضوء»... وقال جفان «مذهب التصوير الفوتوغرافي غير قادر على تجاوز الجِلد وسبر أغوار

الكائنــات والغوصــ في أعماقهــا»... و«الجســد عندمــا تمتطيــه العاطفــة، يتحــول إلى زجاج مخاتــل، لا بد لك مــن تحطيمه، كي تــرى الروح البشرية علــى حقيقتها»... وقال جفــان «اللوحة لحظــة من لحظــات القبض علــى الروح والحقيقة»... هــذا ما قاله هــو، عــن لســانها، وربما كان يعــرف ماذا يقــول؛ أما أنــا -كاتب هــذه الســطور- فقــد اختلــط الأمــر علــي؛ ومــا عــدت أدري إن كانــت هي من تقول ذلك كله، أم جفان! ورحت أراقب الموقف وأنتظــر الفرصــة المناســبة كــي نلتقــي فيزيولوجيًــا...

كانــت مغرمــة بالحديــث عنه، وقــد أرســلتْ إلي صفحات طويلة، ســردت فيهــا كيف ألقــوا القبض على جفان وشــحطوه إلى أحــد الزنازيــن الســفلية، وكيــف بــات -بعدهــا- لا يطيــق رؤيــة فرج، وبخاصة بعد أن كشــف له فــرج الحزين أنه ذلك الــ «عرســا» الــذي كان يصــرخ داخــل فــرع التحقيــق، بــات يخــاف منه ويخاف مــن صوته الذي تحول إلى طنين ممض داخل جمجمتــه؛ مــا أصابــه -أخيرًا- بمرضــ غامض؛ بــدأ بامتناعه عن الأكل والــكلام والخــروج إلى ســاحة التنفس، وتطــور ليصبح مرضًــا خطــرًا أصــاب روحــه؛ فــراح يشــوه وجهــه، يلطخــه بالهبــاب والقــذارة، يحلــق أحــد حاجبيــه أو كليهما، أو جزءًا من لحيته أو جهة من شــاربيه، تاركًا الأخرى... ثم صار يخلع ثيابــه كلهــا، ويحاول حرقهــا أو تمزيقهــا، ليبقى عاريًــا تمامًا...

تحـول إلى كائـن عنيـف مرعـب، يهـدد حيـاة الآخريـن بالخطـر، ينهض فجـأة، بعـد منتصـف الليـل، ليأخـذ شـحاطة ويطـرق بهـا البـاب بقوة، وهـو يكيل أقذع الشـتائم للحراس ورأس النظـام ومديـر السـجن، ورفاقـه المقربـين، وأولهـم فـرج... حتـى أنـه تجاسـر علـى شـتم الله وأنبيائـه ومعاويـة بـن أبـي سـفيان والحجـاج بن يوسـف وصـدام حسـين وكارل ماركـس ولينـين... وقـد وقـف رفاقه عاجزيـن عن مسـاعدته أو إسـكاته. وكثـيرًا مـا كان الحراس يسـحلونه ويضربونـه ويعذبونـه بقسـوة، حتـى يفقـد الوعـي؛ إذا مـا ذكـر سـيادة الرئيـس بسـوء...

عندمـا تأكـدوا أنـه مريـض حقًـا، أمـر مديـر السـجن بعزلـه في زنزانـة مسـتقلة، ومنـع التواصـل معـه، بـأي شـكل كان... لكـن صوتـه كان يصـل عـبر الممـرات، عندمـا يوجـه خطبـة عصمـاء للجماهـير، أو يصـدح بـ «العتابـا» و«الميجنا»[1] أو عندمـا يصـدح بهتافـات وشـعارات مسـتهلكة، أو يبدأ بمدح تروتسـكي وغرامشـي ولوركا... ثم يعود -بعدهـا- لتوجيه شـتائمه الغريبـة للإمبرياليـة والصهيونيـة والأمـة العربيـة وحـزب البعث...

أكـثر مـن حـزِن عليـه كان فـرج الحزيـن... شـعر

---

1 - أغنيات محلية من التراث الشعبي.

-ولأول مـرة- أنـه صـار يتيمًـا! حاول كثيرًا أن يـزوره أو يراه في زنزانتـه، لكنهـم منعـوه. ولم يفقـد الأمـل أبـدًا، بـأن جفـان سيشـفى حتمًـا، ويعـود إلى وضعـه الطبيعـي...

× × ×

عندمـا قـرروا الإفـراج عـن فـرج، وضعـوه في حافلـة مع «أطفـال تـدمـر»، تم نقلهم إلى سـاحـة، عرف -لاحقًا- أن اسـمها «المرجة»[1]...

لم يكـن لـه أب ولا أم ولا أقربـاء ولا أصدقـاء.! لا مـكان يلجأ إليه أو يعرفه... اقـترح عليه «محمد» أحد رفاقه المقربين، أن يصحبـه إلى بيتـه، لكنـه -هـو الآخر- وعلى الرغـم من أنـه أكـبر منـه، لم يكـن يعـرف كيـف يصـل إلى ذلـك البيـت... لا يعـرف غير دكان لأحد أقاربه بحـي الصالحية، لكنه لا يعرف كيـف يصـل إليـه.! فعندمـا نزلا في سـاحـة المرجة وسـألا عن حـي الصالحيـة، دلوهما كيـف يسـتقلان باص الصالحية كي يصـلا إليـه، لكـن تبين أن الأمـر شـائك جـدًا بالنسـبة إليهما، فهمـا لا يعرفـان شـيئًا، والأمكنـة تغـيرت أصـلًا، وكلاهمـا لا يملـكان الخبرة بخطوط النقـل الداخلي المعقـدة، ولا يملكان المال اللازم لذلك!

---

1 - ساحة شهيرة في دمشق شنق فيها الوالي جمال باشا السفاح، عددًا من الأحرار العرب، المناهضين للدولة العثمانية.

لم يبــق أمامهمــا إلا اللجــوء إلى أقــرب جامــع في تلــك الســاحة...

الأهــل -أيضًــا- لم يتمكنــوا مــن معرفــة ابنهــم محمــد بسـهولة...! كان في الصـف السـابع عندمـا أخـذوه. أصبـح -الآن- في الخامسـة والعشـرين من شـبابه.! أخواته الثلاثة وُلدن في غيابـه ولا يعرفنـه إلا مـن خـلال صـورة صغـيرة عمرهـا من عمـر الصـف الأول الابتدائـي؛ كبّرهـا والـده وعلقهـا في صدر البيـت.! كانــت الصورة هــي محمد.

عندمـا أوصلـوه -أخـيرًا- إلى بيتـه؛ اسـتوعب أبـوه قصة فـرج، وتعاطف معـه، واحتضنه، لكن بيتـه كان ضيقًا، ولديه ثـلاث بنـات، إحداهـن في سـن النضـج... زوّده بمبلـغ متواضـع جـدًا، وأمـن لـه مكانًـا في جامـع الحنابلـة القريب، كي يعيشـ فيه .

كل شــيء كان جديــدًا علــى فــرج... فهــو لم يــرَ في حياتــه صبيــة أو زهــرة أو شــعرًا طويــلًا أو ســتارة أو ســريرًا، علـى الرغم مـن ثقافتـه النظرية التي اسـتقاها من الكتب! إنه يعـرف الـبرد، لكنه لا يعرف الغيـوم والثلج والمدفأة، لم يجرب الأحذيـة ولا المشـي تحـت المطر.! يعـرف ليل النوافـذ، لكنه لم يـر القمـر أو النجـوم في حياتـه! يعـرف ضـوء النهـار، لكنه لم ير الشمس أو ظلال الأشجار أو لون الغروب... فاجأته الريح،

فما عرف كيف يتعامل معها! فاجأته البنايات والشوارع والباعة والسيارات، كما فاجأه الفراش واللحاف الأبيض والمخدة الوردية والأفق والجبل والعشب والأرصفة والتراب والزجاج والصخور والموسيقى وواجهات المحال وأصص الورد ورائحة العطر... شاب في الثامنة عشر من عمره، بلا عمر ولا ذاكرة ولا تجربة... ما قرأه في الكتب وما سمعه من قصص وأحاديث، كان محض خيال وتصور غامض للأشياء.! لم يتوقع أبدًا أن تكون الحياة حقيقية إلى هذه الدرجة؛ تراها بعينيك وتلمسها بأصابعك وتسمعها بأذنيك وتشمها بأنفك وتذوقها بلسانك... لكن حاسته السادسة كانت متحفزة باسقة، وكان يجب عليه أن يبدأ من الصفر، أن يتعلم الأسماء، ويتعلم المشي، وارتداء الملابس، والخروج من الباب، والنظر من النافذة، والتعرف إلى الأزقة والدكاكين والأماكن والجهات والناس والكلام ورد التحية والمجاملة... كان ذلك كله مستجدًا ومدهشًا... لم يلجأ إلى الصمت والانزواء، ولم يخَفْ من الحياة الجديدة ، كما يحدث -عادة- في مثل هذه الحالات، بل أقبل بنهم عليها، وراح يشربها بعينيه ويصغي إلى إيقاعاتها بشغاف قلبه، ويلامسها بأصابع يديه وأهدابه. سيصبر ويكابر ويتعلم الأشياء كلها... إنها حياته...

الجامع كان كابوسًا جديدًا لم يألفه من قبل، مع أنه عاش وتربى مع رجال دين متشددين.! فُرض عليه لباس

خاص لم يعجبه، ورفض أن يلبسه، وفرضت عليه الصلاة، خمس مرات في اليوم، مع أنه ترك الصلاة قبل خروجه من السجن بسنوات... منعوه -طبعًا- من الرسم والنحت والترجمة، وأرادوا تحويله إلى تابع أو خادم مطيع لهذا الشيخ أو ذاك الخطيب، مع أنه من الفتيان القلائل الذين تبحروا في الدين وعرفوا أصوله، وحفظوا القرآن والسنة النبوية، قبل خروجهم من السجن...

الطريف في الأمر، أنهم حاولوا إجباره على إكمال دينه بالزواج من إحدى تلك الفتيات اليوغسلافيات المسلمات اليتيمات اللواتي هربن من جحيم الحرب الأهلية في «كوسوفو»، ولجأن -في التسعينيات- إلى عدد من جوامع دمشق؛ وعُرضن للزواج من أي رجل مسلم، يستر عليهن أو يرغب في الزواج على سنة الله ورسوله.! رفض العرض واستاء وامتنع، مع علمه أنه مثلهن بلا أب وأم؛ ما دفعهم -في النهاية- إلى طرده من الجامع، بتهمة العلمانية والإلحاد والطعن في النسب! لكنه لم ينقطع، خلال السنة التي قضاها في الجامع، عن القراءة والترجمة والرسم والنحت، وهذا -ربما- أكثر ما أثار حفيظة القيّمين على الجامع، وجعلهم يرتابون بدينه وصحة إيمانه.

كانت الأبواب كلها مغلقة في وجهه، لأنه لقيط، لم

يكـن يتيمًـا، بـل مجهـول النسـب! محرومًا مـن حقوقـه كلها! تمّ استعباده لهـذا السـبب... لم يتمكن من الحصـول على أي عمل، ولم يعـترف به أحـد أو يقبل بتشـغيله... هـذه المسـألة نغّصت عليـه حياته وسـدت عليه السـبل، لذلك، وضع لنفسـه هدفًا واحـدًا، هو أن يعـترف به المجتمع! ولم يـكن هـذا ممكنًا إلا بإقامة دعـوة قضائيـة، يصنفهـا القانـون بـ «دعـوة الحسـبة»، يقيمها اللقيـط، ضـد أمين السـجل المدني في مكان الإقامة، كـي يتمكن مـن الحصول علـى نسـب وهوية! هذا مـا نصحه بـه المحامون، واسـتطاع بمسـاعدتهم ومسـاندة إمـام الجامـع -حينهـا- مـن كسـب الدعـوة؛ مـا سـمح له -أخـيرًا- أن يكـون له أب اسـمه: عبـد الله (وهـو الاسـم الـذي يختـاره القاضـي عـادة، للقطـاء) وأم اسـمها ياسـمين (وهو ما اختـاره فرج بنفسـه)، وخانة هي مـكان إقامتـه في جامـع الحنابلـة بحـي الصالحيـة.! أمـا ديانته، فهي الإسـلام طبعًـا، دون غيره...

تمّ تسـجيله في دائـرة النفوسـ، وتمّ الاعـتراف بـه وتسـليمه هويـة شـخصية برقـم وطنـي، تثبـت أنـه مواطـن عربي سـوري، اسـمه: فرج، وكنيته: عبد الله، نسـبة إلى أبيه الافتراضـي.! ولم يتـم ذلـك في ليلـة وضحاها، بل اسـتمر أكثر من ثلاث سـنوات، عاشـها في الجامـع صابرًا مثابرًا علـى عمله...

كان ذكيًـا دمثًـا خبـيرًا بالناس مقبـلًا على الحيـاة، على

الرغم من صعوبتها. وقد تعرف إلى أصدقاء كثر تعاطفوا معه؛ فقد ساعده أبو محمد (صديقه) في الحصول على مكان آخر يقيم فيه، داخل مشغل صغير للنحت اليدوي، بمدينة داريا، يملكه تاجر «أنتيكا» أعجب بمنحوتاته التي صنعها في السجن، فسمح له بالعيش في مشغله، مقابل إصلاح وترميم وتنظيف ما جمعه من قطع عتيقة، ليقوم ببيعها، من جديد، وبأسعار مضاعفة، للحوانيت والبسطات المنتشرة حول الجامع الأموي، في دمشق القديمة.

انتقل إلى مشغل صغير في قبو ضيق، أسفل بناية شاهقة مكسوة بالرخام الأبيض، له باب حديد مبتذل مثقوب، ونافذة ضيقة... يزدحم بالصناديق والتحف الفنية المتنوعة، والمنحوتات النحاسية والفضية والخشبية المحشورة في خزانة اسمنتية تشبه «المطوى»، تغطيها ستارة سميكة، عُلقت بالمسامير في صدر ذلك القبو الذي كان يخلو تمامًا من الفئران، بفضل كتيبة من القطط، تعيش في الفناء، وتستطيع أن تدخل وتخرج منه متى شاءت، عبر كوة صغيرة في النافذة.

تمكن فرج -بعد جهد- من إيجاد عمل إضافي في مكتب يقوم بترجمة شتى أنواع السندات والوثائق والشهادات والمراسلات؛ فراح يترجم في الليل ويرمم في النهار... وهكذا،

شعر بالاستقرار، وربما السعادة العظيمة التي لم يعرفها من قبل. وهذا ما ساعده على الانخراط في هذه الحياة البكر التي كانت تذهله كل يوم بتنوعها وثرائها وتناقضاتها، على الرغم من قسوتها، وكيف لا تكون الحياة قاسية، بعيني شاب لم يختبرها بعد.!

لكنه، في خضم حياته الجديدة، لم ينسَ يومًا صديقه جفان الذي علمه الرسم والنحت واللغة الفرنسية. كان يتذكره مع كل قطعة يرممها وكل ورقة يترجمها، ولم يكن لديه شك أنه خرج من المعتقل، وتعافى، وأنه يعيش الآن في مكان ما بالغوطة، عند أهله ربما... فطالما حدثه جفان عن أهله وعن الغوطة وأشجارها وبساتينها... عن المشمش والخوخ والدراق والجوز والماء... عن أمه الأرملة التي ربته وعلمته، من «شغلها بالإبرة والتطريز»، وأخته الصغيرة سحر، وأبيه الذي فُقد في حرب تشرين/ أكتوبر عام 1973، على مشارف جبل الشيخ، ودفن هناك تحت ثلوجه، ولم يتمكنوا -حتى الآن- من معرفة مصيره أو الحصول على عظامه! لم يحصلوا إلا على تابوت مليء بالحجارة ربما، أما جثته، فقد بقيت راقدة هناك، غير بعيد عن المرصد المطل على دمشق... لم يكن جفان لقيطًا مثل فرج، بل يتيمًا، له أب شهيد وأم وأخت وتابوت ومرصد وعظام...

زار كثيرًا من قرى الغوطة، وسأل كثيرًا عنه... ما هي أخباره؟ أما زال مريضًا.؟ هل خرج من السجن؟ وماذا حل به.؟ يقال إن السيد الرئيس أصدر عفوًا عامًا، وأغلق سجن تدمر الرهيب... لا شك أنه أصبح حرًا طليقًا قبلي... كم أشتاق إليه وأرغب في رؤيته...! لو أعطاني عنوانه، لكنت ذهب إليه، بعد خروجي من السجن مع محمد، وما كنت احتجت لذلك الجامع البغيض... ومن يدري قد يكون جاري، يسكن قربي في داريا، في هذا الحي، وفي قبو من مثل هذا القبو... ومن يدري قد أراه صدفة في الطريق أو الدكان المجاور...

وبالفعل، شاءت الصدف أن يلتقي به فجأة في مكان بعيد عن قبوه... فقد ترجم تقريرًا طبيًا، كلفه مدير المكتب بإيصاله إلى عيادة دكتور مختص بالطب النفسي، اسمه عاصم عاصم... وهناك التقى ثانية به...

أصيب الطبيب النفسي بصدمة عندما قفز جفان من مقعده كالمصعوق وتعلق برقبة فرج، ما إن رآه... أخذا يضحكان ويبكيان معًا... يبتعدان، فينظر كل منهما إلى الآخر، ثم يتعانقان من جديد... كان لقاء فريدًا، لا تسمع فيه سوى همهمة سعادة وكلمتين هما «جفان» و«فرج»... فرج وجفان!

بقـي عاصـم صامتًـا متفرجًـا؛ إلى أن هتـف جفان، مشـيرًا بيديـه الاثنتين إلى فرج: هذا هو يـا دكتور عاصم... هذا فرج الـذي حدثتـك عنـه... ثـم ينظـر إليـه ثانيـة، متفقـدًا وجهه وطوله ويديه وشـاربيه...

كان جفـان قـد خـرج مـن المعتقـل في ذلـك اليـوم الذي أفرج فيه عن فرج، وعن كل من أصابه عطب بسـبب الاعتقال؛ وذلـك بعفـو خاص مـن رئيسـ الجمهوريـة! اقتـادوه مكبلًا من سـجن صيدنايـا إلى فـرع التحقيـق العتيـد، وبسـبب وضعـه الخاص، طلبـوا مـن أمـه أن تحضـر لاسـتلامه، فحضـرت برفقـة أخته سـحر (التي أضحـت طبيبة أطفـال)، وخطيبها الدكتور عاصم الطبيب النفسـي... كان في حالة مزرية، نفسيًا وبدنيًا، اكتئـاب حاد وعقـدة اضطهاد، وجلد علـى عظم...! رأى أخته وأنكرهـا، وسـيطر عليـه هـدوء غريـب عندمـا عانقتـه أمـه، لكنـه ابتعد عنهـا فجأة كالملسـوع، عندما بكت، فلم يسـتجب لعناقهـا وقبلاتهـا.! حاول عاصـم أن يحدثه فلم يـرد! وعندما خـرج إلى الشـارع، أغمضـ عينيـه وصمـت... بقـي مغمضـ العينـين وهـو يمشـي، حتـى وصـل إلى البيـت... هنـاك، جلس في زاويـة غرفتـه، ونصـب بطانيـة عسـكرية كتيمـة، لتكون سـتارًا يحتمـي بـه ويحميـه مـن نظـرات الآخريـن.! وبـدأ عاصـم بعلاجـه، وتمكـن -بسـرعة- من كسـب صداقتـه، كما تمكـن -بواسـطة الأدويـة- مـن التخفيـف عنـه، وإلغاء السـتارة

علـى الأقـل، لكنـه بقـي صامتًـا مشـدوهًا، عازفـا عـن الطعـام والبهجـة... الوحيـد الذي جعلـه يتكلم، وأقنعـه بالخروج من الزاويـة، هـو فرج الحزين الـذي صار يزوره كل يـوم تقريبًا، ويحدثـه عـن محمد والجامع وعملـه في مكتب الترجمة والمرسـم العجيـب الذي يعيشـ فيه، والتحف الفنية الرائعـة التي يعيد ترميمهـا، ويصغـي إليـه فـرج باهتمـام، بينما تصنـع أم جفان الشـاي، وتقدمـه لهمـا، وهي تشـعر بسـعادة غامـرة، لأن ابنها بـدأ يصغـي ويضحـك ويتفاعـل.! وإن تأخر فرج عـن زيارته سـاعة واحـدة، راح جفـان يسـأل عنـه بلوعة: أيـن فرج!؟ هل غضـب مني!؟ لماذا تأخر فرج!؟ ثـم يغمض عينيـه ويصمت من جديـد؛ فتذهـب الأم -مسـرعة- إلى المشـغل، لتخـبر فرجًا بأن جفان يسـأل عنه...

ويومًـا بعـد يـوم، تمكـن فرج، مـن إقنـاع جفـان بالعيشـ معـه في مشـغل الأنتيـكا بداريـا، ومسـاعدته في عملـه. وقـد شـجعه علـى ذلـك، الدكتـور عاصـم...

هنـاك، وبعـد بضـع أسـابيع مـن انتقالـه إلى ذلـك القبـو السـاحر، عـاد جفـان إلى الرسـم والنحـت، من جديد، بشـغف يشـبه السعادة.!

- 6 -

كان البرد شديدًا، وبدأ الثلج بالهطول... وكنت أشرب النبيذ بمتعة نادرة، وأنا أفكر فيها وأقرأ لها هذا المقطع العجيب...

تم الاتفاق بيننا أن تكون فصول الرواية مناصفة، واحد لها وآخر لي (نتناوب على كتابتها تباعًا)، وأن يبني كل منا فصله الخاص به، على ما كتبه الآخر؛ آخذين بعين الاعتبار وحدة الأسلوب وتقنيات الكتابة واللغة ومجريات الحدث وتطور الشخصيات والهدف... لكنها، لم تستفرد بالفصول كلها وحسب، بل هي تجرفي -الآن- حيثما تريد، محولة الـ «كاتب» الذي استعانت به، وقررت -طوعًا- أن يكون هو صاحب القرار النهائي، يفعل بروايتها ما يشاء؛

إلى قارئ عادي منفعل، أو محرر لنص سردي، التبس عليه الأمر في ما كُتب! وكلما استعدّ لكتابة مقطع جديد، أرسلت إليه فصلًا جديدًا، يحتوي على عوالم وأحداث وشخصيات متفوقة.! إنها تتمرد عليَّ وتحاصرني؛ حتى بتُّ أشعر بالخطر، وأصبح الأمر مربكًا بالنسبة إلي! فهي تستفرد بالأحداث وتأخذ الرواية باتجاه مختلف عما أردتُ، ومخالف للشروط التي اتفقنا عليها! والأخطر من هذا كله، أنها لم تقل بعد، كلمة واحدة عن حياتها الخاصة مع الجنرال، وهذا ما جعلني بدءًا أقبل الشراكة معها في كتابة هذا المشروع...!

ملأت كأسًا أخرى من النبيذ الأحمر، واحترت كيف أتصرف.! قلت: لتكتب ما تشاء، وسأنشر -بدوري- ما أراه مناسبًا. قد يكون سلوكًا غير نزيه، لكنها لم تترك لي خيارًا آخر! سأضطر إلى نشر الرواية دون ذكر اسمها! اسمها -أصلًا- غير حقيقي، لكن علي أنَّ أتأكد من ذلك أولًا... ثم إنها كتبتْ مادة معقولة، ولا أريد أن أخسرها وأضيع هذا الفرصة التي لا تتكرر... لكنني لم أعد أستطيع الاستمرار أيضًا، فماذا أفعل.؟

دعوتها لزيارتي على فنجان قهوة؛ فرفضت واستنكرت.! اقترحت عليها أن نلتقي في مكان ما، فاعتذرت بلطف كالعادة! وعندما طلبتُ رقم هاتفها على الأقل، قالت

إنهـا لا تسـتخدم الهواتف! وبدأت أشـك في نواياها، وأتسـاءل: مـاذا تريـد!؟ إنهـا تضـرب علـى الوتـر الحساس (الاعتقـال السياسـي) وهـذا مـا كتبـتُ عنـه كثـيرًا؛ فلمـاذا ترفضـ لقائـي! وكيـف تسـتخدم الإنترنـت ولا تسـتخدم الهاتـف.! كنـت أقـدّر غموضهـا وحذرها، ومن يـدري! قد يكـون هاتفها مراقبًـا... لكنـي لا أسـتطيع أن أكـون شـريكًا في كتابة رواية حقيقية، مع شـخص وهمـي خائف، تهدمت معه جسـور الثقة والشـجاعة! وبتّ أخشـاها بـدوري، وأتحاشـى التواصـل معها، لكنهـا اقترحـت -فجـأة- أن أزورها أنـا...! حاولـت التهرب من الإجابـة، ريثمـا أفهم السـبب، قلت: سـأفكر في الأمـر، ثم قلت سـأحاول، لكنهـا أصرت، وكتبت بشـكل قطعي: «بل سـتأتي غـدًا في السـاعة الثانية بعـد الظهر»... وأعطتنـي العنوان: (قبو بمدينـة داريـا. أسـفل كومـة من قشـر اللـوز والنفايات.!)

ارتعشـت أذنـاي، وارتجـف قلبي مـن الخـوف! داريا!! هل تسـخر منـي!؟ إنهـا تعيشـ في حـي القصـاع[1] (كمـا علمـت)! في بنايـة تحرسـها الدبابـات... مـن يسـتطيع الذهـاب إلى داريا المدمـرة المحاصـرة!؟ هـل يعقـل أن تعيشـ امـرأة كهـذه في قبـو بداريـا الخاويـة! هـل عـاد سـكانها دون علمـي، أم أنهم لم يغادروهـا أصـلًا...!

---

1 - حي راق من أحياء مدينة دمشق

قرأت العنوان مرة ثانية وثالثة ورابعة... وقررت - أخيرًا- عدم الرد ووقف هذه المهزلة نهائيًا: (يبدو أنه عشّ عقارب بالفعل، كما قال صديقي)... لكنني فوجئت للتو، بطرق خفيف على باب بيتي، بيتي أنا.! لا أدري كم كان الوقت، ربما أول الليل، ربما آخر الفجر! لكنني كنت واثقًا، بأن أصابعها النحيلة هي التي تطرق الباب؛ فقد كنت بانتظارها.! وقبل أن أفتح الباب دخلت...!

«مرحبا»... «هل جئتُ في الوقت المناسب؟»

كانت ترتدي معطفًا عسليًا فاخرًا وقبعة صوف وقفازات سوداء، لكنها تلبس كندرتها الصفراء المدببة.! خلعتْ المعطف، فظهر فستانها الأبيض المورد! يا إلهي...! إنه ذلك الفستان الذي اخترعتُه، وتلك الكندرة نفسها، ذات الكعب العالي! لكن الفستان كان رقيقًا مثل «شلحة»، لا تتناسب أبدًا مع هذا البرد الشديد! إنه قصير أكثر مما توقعت، وله زنار وردي رفيع! شعرها قصير أيضًا، وصدرها ضامر... وما أدري لماذا هيء لي أنها طويلة جدًا! انحنت لتسحب من حقيبتها زجاجة نبيذ وتضعها على الطاولة! لم أر الزجاجة، بل رأس نهد صغير خرج عن التغطية، بينما احتجب الآخر داخل قوقعته... زجاجة نبيذ أخرى؟ تساءلتُ، قالت: وفستان آخر أيضًا.! «أنظر»، ثم استدارت

بحركـة بطيئـة، كما لو أنها تموجت في مـرآة، أو تحركت بفعل نسـمة ريح في مشـهد سـينمائي بطيء... رأيت مـا فعله قضيب الحديـد في مؤخـرة الفسـتان، تمامًـا كمـا وصفتـه أنـا في المقطـع الأول، وأنـكرتـه هـي في المقطـع الثاني.! «هل تـرى؟»... قالت، كمـا لـو أنها تدعـوني لأمد يدي وألمـس لحمها، لكنـي لم أفعل...

- كنـتُ أفكر بكِ، لكـن كيف وصلتِ بهذه السـرعة! ما إن فكـرتُ حتى أتيتِ.! هل أنتِ سـكرى، أم مسـرنمة؟ تعيشـين حلمًا من أحلامكِ، أم هي شـهوة من شـهواتك الغابرة!؟

تناولـت يدها -بلطـف- وكدت أقضـم أصابعها الشـهية الخاليـة مـن الخـواتم، لكنني لثمـت باطـن كفها، عوضًـا عن ذلك، وأعـدت إليهـا أصابعهـا سـليمة.! كان الكـف دافئًـا نديًا تفوح منـه رائحـة ثلـج وبـرد، أمـا جسـدها فـكان -ومـا زال- هزيلًا نحيـلًا، كمـا لـو أنـه خيال امـرأة، وكنـت في حالة مـن الغلمة والخـدر اللذيـذ، لدرجـة أننـي لم أسـتطع تقبيلهـا...

لا أنكـر أننـي اشـتهيتها مـذ رأيتهـا؛ بـل تمنيـت -عندمـا قـرأت رسـالتها الأولى- لـو كنـت أعرفهـا مـن قبـل... وبـدأت أشـعر -بعدهـا- بإثـارة مـا، كلمـا قـرأت رسـائلها وتذكـرت عينيهـا وفمهـا العـذب! لمـاذا لم أقبلهـا!؟ كان فمهـا قـرب فمي، لكنـي لم أفعـل...! وكلما تأكـدت بأننـا سـنكتب -معًا- روايـة واحـدة؛ انتابتنـي رعشـة شـهية مبهمـة.!

قالـت إنهـا لم تأت من أجـل الرواية! بل جـاءت مضطرة، كـي تشـرح لي التباسًـا وقـع فيه الكثـيرون، وتحـول إلى قناعة ساذجة أنهـا زوجة ضابـط كبير! وقالت إنهـا لا تفهم مَن زرع هـذه الفكرة في رأسـي! وأقرت أنها لم تتزوج قـط، كما أظن.!

«أنـا... عانس!» أكـدت حانقـة، «لم أتـزوج في حياتي، ولم أعشـق رجلًا غير جفـان، ولا أرغب في خوض هـذه التجربة مـع أحد غـيره»! مالت علي وقالـت بأنني أشـبهه (هكذا قالت، كمـا قالـت)، ثـم أكدت بـأن الكثيريـن يظنـون أنهـا متزوجة، وهو محض تشـابه في الأسـماء لا أكثر! «إنهم يخلطـون بيننا؛ أنا وامـرأة أخرى، كانت زوجة ذلك الجنرال المجرم، كما تسـميه وتصفه».

لا أذكـر أني سـميته أو وصفتـه هكـذا، لم أذكـره أو أسـأل عنـه مـرة، ولم أفصـح عـن اهتمامـي بحياتهـا الزوجيـة تحديـدًا، كـي لا تخـاف وتهـرب منـي! فكيـف عرفـتْ!؟ كل مـا طلبتـه منهـا ودفعتهـا إليه، هو الحديـث عن عشـرين عامًا من سـيرتها، أخفتها عني لسـبب ما.! كانت هـذه الفكرة موجودة في رأسـي أنا، سر من أسراري الخاصة بي، لا يعرفه أحد سواي! فكيـف عرفته هي؟ هل يعقل أن يكـون صديقي الذي حذرني منها، قد وشـى بي.؟ وهـل جاءت من «قبوها في داريا» وفي هذا الـبرد الشـديد، كي تقـول لي مثل هـذا الكلام، ولمـاذا ترتدي

إذن هذا الفســتان.؟؟

لم أصدقهــا طبعًــا. أدهشــني أنهــا تتقــن الكــذب في الكتابــة أكــثر من الـكلام! تنثـال بالعبـارات كالحجلـة عندما تبـدأ بالشـقرقة، ومـا إن تشـعر بخطـر طفيـف حتـى تمسـك بكتلـة تراب أو حجر وتختبئ تحته.! وما أدهشـني أكثر، أنها لم تنظـر -أبـدًا- في عينـي مباشرة! عيناهـا محايدتـان، تخلـوان -تمامًـا- مـن التعبـير والسّـمات: زجاج مطفـأ، لا بريـق، لا عمق، لا إشـارات واضحـة.! لم تكـن كذلـك عندمـا رأيتهـا أول مرة! إنهـا تتحدث الآن كالنائمة أو «المسرنمة»، كمـا تحب أن تصف نفسـها، تعضّ أطـراف حرف الـراء، مثـل الفتيـات الصغيرات، علـى الرغم من أنهـا تجاوزت الأربعين بخمسـ سـنوات. من قال لهـا إني مهتم بذلك «الجنرال المجرم»!؟ هكذا سأسـميه وأصفه في الروايـة، لكـن مـن قـال لها إن هـذا ما سـأفعله؟ هـل توقعت ذلـك؟ ومـن أين اخترعـت هذا الـ (تشـابه في الأسـماء)!؟

شـربت كأسًـا رابعـة مشـابهة لـلأولى، ثـم أغمضـت عينـي وتوقفـت عن الأسـئلة كلهـا... لكنـي سـمعت صوتها - فجـأة- يأتي من المطبخ! كانت تحضـر القهوة أمام الغاز، وتدير ظهرها لي.! شـعرت للوهلة الأولى أنهـا زوجتي، كانت ترتدي ثيابهـا.! راقبـت متنهـا الطويل الحافي وشـعرها القصـير، توقفت عنـد شـق فسـتانها الأبيضـ الـذي كشـف عـن باطـن فخذين

رفيعتين. كانت تشعر بي، وتراني بردفيها. اقتربت منها ببطء والتصقت بها، فتوقفتْ عن الحركة. توقعت أن تسكب غلاية القهوة على رأسي، لكنها لم تقم بأي ردة فعل نسائية. كانت نحيلة لدرجة أني لم أجرؤ على احتوائها بقوة مناسبة! امرأة بلا لحم تقريبًا، لكن عظامها شهية... فتحتُ سحّاب فستانها بهدوء، ورحت أقبل عنقها وكتفيها بلطف، أعدّ فقرات ظهرها البارزة، بشفتي، من الأعلى إلى الأسفل.! تركتني أفعل ذلك بحرية، وراحت تحرك القهوة بانفعال مدروس، وعندما وصلتُ إلى الردفين، وركعتُ على البلاط؛ حاولت إبعادي بعجيزتها: «القهوة»... مددت يدي وأطفأت الغاز، وعندما حاولت فكّ شريط حمالة الصدر، منعتني بقوة، وحمت ثدييها بساعديها الاثنتين...

أول ما فعلتْه في غرفة النوم، هو أنها أطفأت الضوء.! قالت صراحة إنها مستعدة، ولكن شريطة أن تربط يدي أولًا، وتغطي عيني! تركتُها تفعل بي ما تشاء، على الرغم من استغرابي لهذا الطلب.! دفعتني إلى السرير، فاستلقيت مستسلمًا... ورأيتها كيف حلت زنار فستانها الأبيض، وربطت يدي بإحكام إلى السرير! ثم غطت رأسي بسترتي السوداء، فلم أعد أرى شيئًا. طلبت مني أن أبقى هادئًا، وأنا في ذروة الانفعال!

لكــن الســرير تحــول -فجــأة- إلى ســرير عســكري، والكنـدرة الصفـراء إلى «بـوط» أسـود.! وقفـت فوقي وأخذت تقفـز علـى صـدري وبطنـي وركبتـي، تـركل خاصرتـيّ بحذائهـا العسـكري الضخـم وتلـوّح بالسـوط، كمـا لـو أنهـا تفكـر بشـخص آخـر، وتجلـدني أنـا...!

كان ذلـك مؤلمـا جـدًا؛ لكنـه مثـيرًا إلى حـد بعيـد... فاجأتنـي لهفتهـا وصبوتهـا ومهارتهـا. خلعـتْ ثيابـي بحرفية عاليـة، ولم تخلـع ثوبهـا، قبلـت مسـامات جلدي، ولم تسـمح لي بتقبيلهـا، رفعـت فسـتانها فـوق ردفيهـا، وجلسـت علـي ببطء، وراحـت تهمـز في بركبتيهـا، وتلكمنـي بقبضتيهـا الاثنين على صـدري، وهي ترهز وترتهز وتنوس وترتعش وتبكي، كما لـو أنهـا في مناحة، حتـى وصلـت إلى قمة النشـيج...

لم أسـتطع لمسـها، أو النظـر إليهـا... ظلـت تبكـي وحدها حتى سـال الدمع على وجهـي، ثم همدتْ، وهمدتُ...

كانــت متعـة اسـتثنائية مختلطـة، قصـيرة كاللحظـة، لكنهـا أزليـة، مغايـرة لكل تجاربي مـع النسـاء، ولم تكن تجارب قليلـة، لكنـي -هـذه المـرة- شـعرت بشـيء غريـب عنـي، لم أختـبره مـن قبـل! «لـذة ممزوجـة بـالألم»... لم يكـن شـوقًا ولا شـبقًا، بـل حوارًا بين روحـين، ضحيتـين، أو مونولوجًا مزدوجًا

لجسـدين! هذا فن أصيـل، لا يتقنه إلا المهووسـين المدنفين.! من أيـن جاءتها فكرة القيد وإغماض العينين... والسـوط! هل كان حقيقيًـا!؟ ومن منـا جلد الآخر؟ هل تشـاهد أفلامًـا إباحية، أم هـي لوحـة «ايروتيكيـة» من لوحاتهـا التي لم ترسـمها بعد!؟ حلـم أم مـرام، أم غلمـة شـخصية محضـة، اكتسـبتْها من ذلك الجنرال؟؟

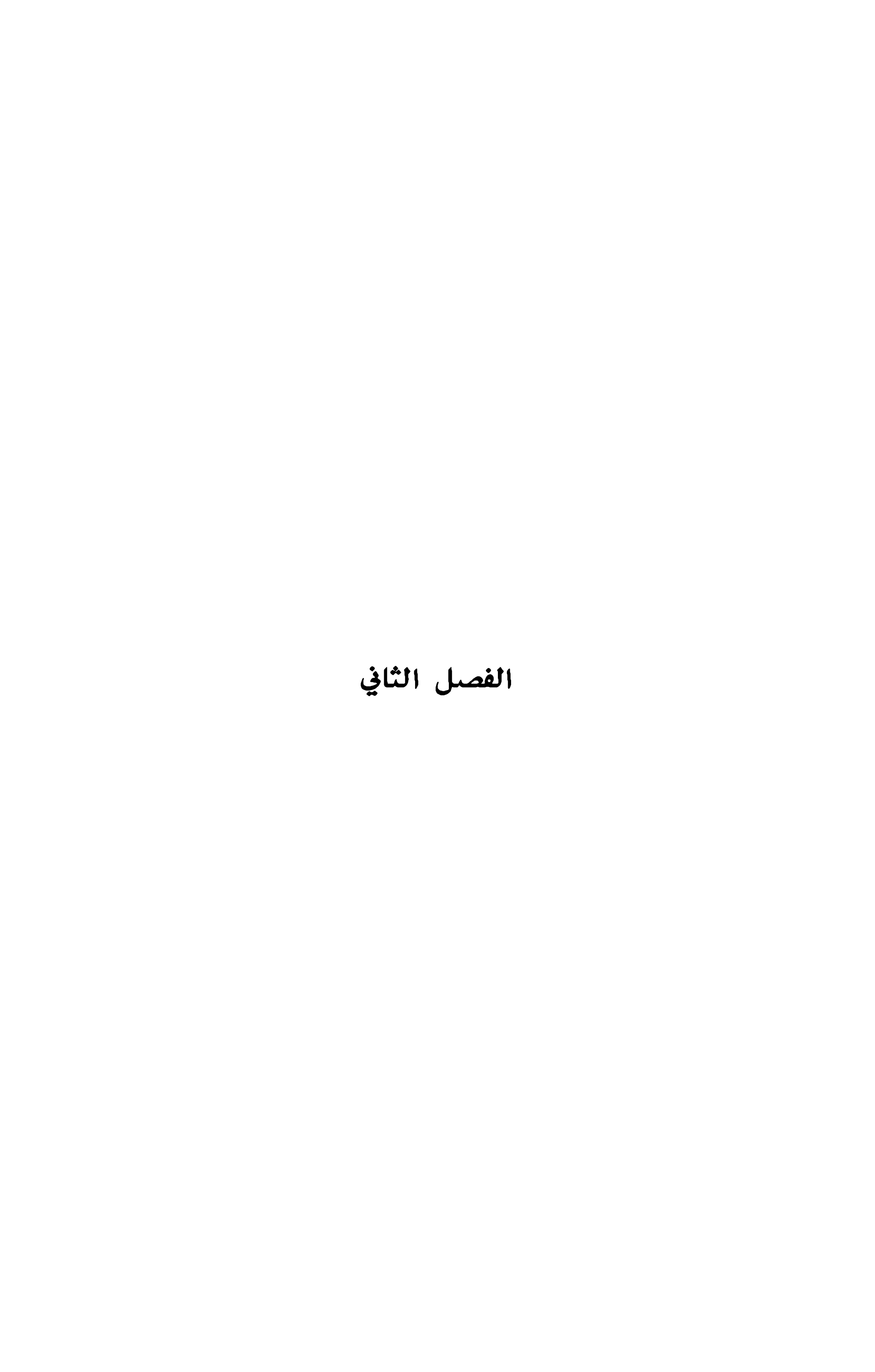
اكتشـفتُ الأمـر بعد نشـوتها... اسـترختْ على صدري، وطوقتنـي بذراعيهـا... فاحـت منها رائحة الدموع وأحاسيس الأنثـى المطعونـة في صدرهـا، تمكنـت في ذروة الهـدوء والخـدر، أن أشـعر بطعنـة نهـد واحـد مـن نهديهـا. كان الأيمـن صلبًـا أكـثر مما يجـب؛ يضغط علـى صدري مثـل كتلة مـن الخرق أو السـيليكون! إنهـا امرأة بحبـة زبيب وليمونـة واحدة...! ومع أني حاولـت ألا ألفـت انتباهها أو أسـأل عـن التفاصيـل، غير أنها أحسـتْ بأننـي فهمـت، فاسـتوت علـى ركبتيهـا المنفرجتـين حـول خصـري، وحمـت صدرهـا بذراعيهـا! لم أكـن أراهـا، لم أسـتطع لمسـها، لكـن صوتهـا بـات عدوانيًـا اتجاهـي فجـأة! قالـت إننـي داعـر «نسـونجي»، ثـم نهضـت منفعلـة وأشـعلت سـيجارة وراحـت تتهمنـي برغبتـي وغلمتـي! بأننـي أحـب الشـبقات العاهـرات، وبخاصـة اللواتـي يسـتهوين هرس حبـات الزبيب، وعصـر النهـود وصفع أرداف العجـين المكتنزة

في اللحظات المناسبة، علمًا أنها حرمتني تذوق الحبتين ولمس النهدين والردفين.! وبدأت تحقق معي! تسأل عنهن، وتطلب إلي الاعتراف بأسمائهن، ووصف مفاتنهن! وما أذهلني أنها كانت تعرفهن جميعًا.! كلهن ناعمات ممتلئات بشعور طويلة وخدود مرتفعة وشفاه وردية وأثداء بارزة ومؤخرات كبيرة، رخوة كالإسفنج... وقالت: «أنا لست كذلك، ولا أريد أن أكون».! معها حق طبعًا، إنها مختلفة! وهي صادقة جدًا بما قالته عني أيضًا، نعم، أحبهن، وهل هذه تهمة.! إنها الحقيقة الوحيدة التي اكتشفَتْها، لكنها كشفت عن رغبات دفينة تحت جلدي، وكنت أرغب لو تحدثني أكثر وأكثر عني؛ لكنها راحت تتحدث بإسهاب عن جفانها... كيف عرفته وعشقته، وكيف كانت تمارس الحب معه، في ذلك القبو الخرب. ولست أدري لماذا اختارت هذا الوقت لنبش أهوائها أمامي، ووصف أدق التفاصيل الجنسية، حتى تلك التي نخجل -عادة- أن نبوح بها! كانت تستمتع وهي تتحدث بشغف عن جسده وعضلاته، ومناطق الإثارة لديه، رائحة جلده، شعر صدره، شاربيه، إبطيه، عانته، فحولته... وكانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت بأن هذه الأوصاف مطابقة لي.! هل هو شكل من أشكال الغزل أم المناكدة، أم التعذيب؟ هل كانت تحاول إثارة شبقي، أم غيرتي.؟ لا أنكر أنها نجحت في ذلك كله، لكن هل كان ذلك الـ «جفان» رجلًا حقيقيًا أم طيف رجل، لا

أدري! ما أعرفه جيدًا، أنها لم تلتق به أبدًا؛ لأنها ذكرت -في مكان آخر- أنها عرفته قبل آذار/ مارس عام 2011، وكانت -حينها- تعيش تحت رحمة الجنرال! فهل كانت تخونه؟ وأي امرأة تستطيع أن تخون جنرالًا مجرمًا!؟

ما أعرفه -أيضًا- أن جفان لم يهرب، كما ادعت، بل قيل إنه حطم كل ما يملكه من منحوتات ولوحات وأدوات، أثناء حصار داريا، ثم صعد إلى أعلى نقطة في منور تلك البناية المدمرة، وألقى بنفسه فوق ركامها... تهشمت جمجمته، وغاب عن الوعي؛ وبعد يومين من النزف الداخلي، مات.! ويقال بل هو القناص من أطلق النار على قلبه فسقط، لكنها أصرت على روايتها هي... وقبل أن ترتدي معطفها، وعدتني، وهي تضع مفتاح شقتي في حقيبتها، أن ترسل مقطعًا من البوح الصافي، مكافأة لي! «سيكون مفاجأة» قالت، لكنها اشترطت ألا أقوم بنشره أبدًا، ومهما كانت الأسباب... إنه بوح خاص بي... لا علاقة له بالرواية، ولا يحق لذَكَر آخر أن يطّلع عليه... «هل تعدني بذلك؟» قلتُ: «أعدك»... فقالت مهددة هذه المرة: «إن لم تف بوعدك؛ سأقوم باعتقالك وتعذيبك حتى الموت...» ثم تركتني وخرجت، قبل أن ترفع الغطاء عن وجهي أو تفك قيودي...

خرجت، حتى قبل أن أفتح لها الباب...



الفصل الثاني

- 1 -

مـع أنــه كان معروفًـا للسـوريين جميعًـا؛ غـير أن اسـمه سـري للغايـة، يتجنبـه الجميـع، ولا يمكـن البوح بـه... أبدًا...

كان برتبـة رائـد! زارنـا، وهو يرتـدي بزته الرسـمية مـع والـده العجوز وأخيـه الملازم حيـدرة! وكان مـن الواضح أنــه صبـغ شـعره للتـو... لا أدري لمـاذا أعجبـت أختـي ميسـاء بـه، علـى الرغم مـن أنــه يناهـز الأربعين مـن عمـره! هل كان ذلـك بسـبب قامتـه الطويلة الممشـوقة، أم لباسـه العسـكري، ونسـره القماشـي المطرز بخيـوط ذهبيـة صفراء فـوق كتفيه العريضتين، أم بسـبب ذلك النسـر المعدني المثبـت فوق «قبعة» الجـوخ الخضـراء المسـتديرة، ذات الطـرة السـوداء؟ لا أريـد وصـف عينيـه وأنفـه وحاجبيـه الكثيفـين وفكّـه العريض...

أفضُـلُ وصـف له هو أنـه بلا أوصـاف وعلامات فارقـة! أو أنه باختصـار شـديد: رجـل بشـاربين، وآلاف العيـون. ! طويـل عريضـ، وحـازم، لكـن تبـين -لاحقًـا- أنـه يخـاف الفئـران والصراصـير «مثلـي»...

كان متزوجًـا ولديـه طفـلان: صالـح وعلـيّ... لم تكـن ميسـاء قـد رأتـه يومًا، أو رآهـا! ولا أحد منـا كان يعرف كيف حصـل علـى صـورة شـخصية لهـا. ! أخـوه حيـدرة، هـو مـن اختارهـا لتكون زوجًا لأخيه الأرمل «أبـو صالح»! ظل يراقبها طـوال ثلاثـة أشـهر، دون أن تـدري! لم تصدق أمي أنـه لم يرها مـن قبل! وعندما سـألتْه على اسـتحياء، ابتسـم وهـو ينظر إلى أخيـه، ثم قال متهربًا مـن الإجابة: «ولو يا أم خضر! نحن أهل وأولاد بلد».

عرفـتْ المسـكينة الحقيقـة بعـد زواجهـا (كان ذلـك قدرهـا)... وكانـت مراهقـة في الصـف العاشـر، مفتونـة منـذ الصغـر بضبـاط الجيشـ وبطولاتهـم وثيابهـم المرقطـة. تحـب لباسـ الفتـوة ودروسـ «التربيـة العسـكرية»، وكان أغلبهـا «ميدانيًـا». تتـدرب فيهـا علـى «النظـام المنضـم» والزحـف والقفـز والدحرجـة والرمـي...

شـخصيًا، لم أفهـم -يومًـا- معنـى هـذه العبـارة «نظـام

منضـم»، ولا أظـن أن أحدًا من الفتيـات أو الفتيـان كان يفهمها، أو يفكـر في الغاية منها. يتعلمون الاصطفاف والمسير والمراوحة في المـكان والوقـوف والالتفـاف والتحيـة وتقـديم الصـف. ويعاقبـون علـى أي خطـأ، بالتوبيـخ والزجـر والزحـف علـى البطـون والأكواع والركب والمؤخرات، فوق الحصى والشـوك والطـين والإسـفلت... كانـت تحب هذا، لكن درس ذلـك اليوم كان مختلفًـا تمامًا:

طلبـت مدربـة الفتـوة مـن الفتيـات، الخروج إلى باحـة المدرسـة والجلوس علـى شـكل صنـدوق مفتـوح، أمـام طاولة خشـبية غليظـة، كان يقف خلفها شـاب برتبة ملازم، يرتدي «فيلدًا»[1] عسـكريًا ويضع أمامه على طاولة حديدية سـوداء، بندقيـة حربية... قدمتـه المدربة باعتباره بطـل الجمهورية في الرمـي، وانضمـت إلى الطالبـات. رحـب الملازم بهـن، بعبارات مقتضبـة، ثم رفـع بندقية الكلاشـينكوف بيده، وأعلن: اليوم، سـنتعلم فـك وتركيـب البندقية الروسـية...

لم يـترك هـذا المـلازم الشـاب أي انطبـاع لـدى أختـي، لكـن المدربـة طلبتهـا بعـد انتهـاء الدرس إلى غرفـة التوجيه؛ نظـرت في عينيهـا الجميلتـين مطـولًا، فارتبكـت، وزادت حيرتهـا عندمـا ابتسـمت المدربـة بغموض وقالت غامزة «حلوة... ليش

1 - الفيلد: سترة سميكة يرتديها الضباط والجنود

الكـذب... معـو حـق والله!» ثم سـألتها عن اسـم أبيهـا وعنوان بيتهـا، وأمرتهـا بالانصـراف دون شـرح!

جـاءت إلي -يومهـا- مرتبكـة، محمـرة الخديـن، وعندمـا سـألتها بكـت (مـن الفـرح ربمـا)، ولم تجـب علـى أسـئلتي إلا بعبـارة واحـدة «مـا بعـرف، مـا بعـرف... مـا فهمـت شـي»... لكـن المدربـة في الدرس التـالي، أخرجـت شـريطة حمـراء، وطلبـت إليها الخروج مـن الصف، وعلّقـت على كتفهـا «الرتبة الجديـدة». ثـم أعلنـت تعينهـا قائـدة للمجموعـة.

لم تكـن تعلم أن هذا كله، لـه علاقة بذلك الملازم.!

رأتـه مـرة أخـرى في حقـل الرمي؛ حيـث أبـدى اهتمامًا واضحًـا بهـا، حتـى أنه اقـترب منهـا كثيرًا، وسـألها عن اسـمها واسـم أبيها وعنوانها... ظنت أنه إعجـاب عابر، لكنها تذكرت مدربـة الفتـوة التـي سـألتها -كذلك- عن اسـم أبيهـا وعنوان بيتها...

كان أول مـا نظـرت إليـه ميسـاء (كمـا أخبرتنـي)، هـو أصابـع المـلازم! وكانـت صدمتهـا كبـيرة عندمـا رأت خـاتم خطبـة في يـده اليمنـى...! «مـا الـذي يريـده منـي إذن!؟»

كان وسـيما ممشـوق القامـة، قـوي البنيـة، وكانـت في

السادسة عشرة من عمرها، طالبة أول ثانوي، ترتدي الزي العسكري مثله، لكن بشريطتين من المخمل فوق كتفيها النحيلتين... «حتى لو كان يريد الزواج، ما قبلتُ به.! إنه أكبر مني بكثير، وعليّ أن أكمل دراستي أولًا...» هذا ما قالته -أخيرًا- وهي تحبس دموعها بكبرياء!

تبين أنه حيدرة، أخو الرائد الأرمل، وأنه كان يبحث عن زوجة مناسبة لأخيه، وعندما رآها في باحة المدرسة، في ذلك الدرس الذي تعلمت فيه فك وتركيب البارودة الروسية؛ سأل المدربة عنها وعن أهلها، وزكّاها لتكون تلك الزوجة المرتقبة... انقلبت حياتها بعد ذلك! وبدأ ينتابها إحساس غريب، كلما خرجت من المدرسة؛ هو مزيج من الارتباك والفزع... كانت تشعر أنها مراقبة -طوال الوقت- من قبل شخص ما، أو أن سيارة عسكرية ما، كانت تتابع خطاها عن بعد، وبداخلها يجلس ذلك الملازم الشاب.! لم تكن لتجرأ على الالتفات إلى الخلف، أو حتى التلفّت يمينًا أو يسارًا، فقد يكون مختبئًا خلف نظارة سميكة سوداء، وربما يفكر باختطافها؛ فيدق قلبها وتتوهج أذناها، وتحث خطاها مسرعة نحو موقف الباص... لم تعد تخرج من بوابة المدرسة إلا برفقتي، أو رفقة إحدى زميلاتها، «كي تصبح عملية اختطافها أكثر صعوبة».! ولم تكن تعلم أن الملازم مكلف بمراقبتها من قبل الرائد!؟

رفض والدي الزواج، ليس بسبب فارق السن بينهما، بل لسبب ما، كنت أجهله.!

قال: ما زالت صغيرة، وقال: عليها أن تحصل على «البكلوريا» أولًا.! وكان هذا رأيي أيضًا، فهي لم تزل طفلة... لكن والد الرائد العجوز تعهد بأن تكمل تعليمها بعد الزواج، وهز سيادته رأسه مؤكدًا: طبعًا، طبعًا... لكن أبي أصر على موقفه.! ودُهشت أمي، كيف يرفض عريسًا برتبة رائد، يخدم في الإدارة السياسية والتوجيه المعنوي! وقد زارنا بسيارة بيجو 504 رمادية، لا يستطيع الحصول عليها إلا الضباط المدعومين! «عريس لقطة» قالت أمي! وقال أبي مستنكرًا، إنه أرمل، ولديه طفلان، ويكبرها بربع قرن على الأقل! وقلتُ: لماذا لا نسألها!؟ كانت الملعونة مختبئة، صامتة، وقد عرفتُ من عينيها أنها موافقة، لكن أبي رفض رأيي، وقال غاضبًا: نسألها عندما تبلغ السن القانونية...

كان والدي مدرسا للغة العربية. مكتبته تملأ حيطان بيتنا وتزيد، نقلوه من سلك التعليم إلى مؤسسة «الريجي»، لسبب ما، نجهله[1]، عرفتُ -عندما كبرت- أنه كان يساريًا معارضًا، يكره العسكر، وبخاصة بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان وتدميره لمدينة حماه... أختي كانت رضيعة، وأنا

1 - الريجي: مؤسسة رسمية للتبغ والتنباك في مدينة اللاذقية.

صغيرة، ولم أكن لأفهم السبب حينها. أبي لم يتحدث -يومًا- بالسياسية أو يظهر لنا موقفه! (ربما يفعل ذلك في غيابنا). كان يقرأ كثيرًا، وكنا نعرف مواقفه من ردة فعله على نشرة الأخبار؛ حيث يبدأ بشتم المذيع، إذا لم يعجبه خبر ما، ثم ينهض ويقفل التلفاز وينزوي ثانية مع كتابه...

قال لأختي: ستصبحين أرملة مثله، في أي وقت! وقال ساخرًا: إن دم الجندي على كفه، وإن عقل العسكري، وبخاصة الضابط؛ أصغر من عضلاته وأضيق من فردة حذائه بنمرتين على الأقل، أمّا أخلاقه فهي أضيق من فوهة مسدس.! وقال في حوارات حامية دارت بيننا بعد ذلك: إن قدر الجندي أن يكون قاتلًا أو مقتولًا... ما يتعلمونه هو الموت والحصار والتطويق والإبادة. إنهم صناع حرب، والحرب توقظ أبشع الغرائز في البشر. «خدمتُ في الجيش وأعرف ماذا يعني أن تكون جنديًا»! وقال: لا تصدقي ما يتحدثون به في الإذاعة والمدارس، عن الوطن والوطنية وحماة الديار والمقاومة... الجيش وقود للسياسيين.! ليس في ظل نظام الاستبداد وحده، بل في ظل الأنظمة كلها... والساسة يعرفون جيدًا كيف يجعلون الجنود يَقتلون ويُقتلون باسم الوطن. إنك لا تعرفين تاريخ هذا الجيش. إنه تاريخ الانقلابات والهزائم. دمروا البلد منذ انقلاب حسني الزعيم[1] ومن أتى

1 - انقلاب حسني الزعم عام 1949 هو أول انقلاب عسكري في سورية.

بعده مــن زعماء.

لم يكـن مـن السـهل علـيَّ اسـتيعاب مـا قالـه أو الاقتنـاع بـه! إنـه يتحـدث معنا بــ «السياسـة» لأول مـرة، وبحماسـة شـديدة.! ظننـت أنه يـبرر رفضه لهـذا الزواج وحسـب، لكن شرحه كان غريبًـا! ما علاقة السياسـيين بالأمر!؟ هل يعقل أن يكـره أحد جيش بلاده، حتى لو كان معارضًـا للنظام!؟ البلد مهـدد من قبـل عدو صهيوني غاشـم يتربص به.! ومن سـيحمي الوطـن ويدافـع عنـه غـير العسـكر!؟ مضـت سـنوات كثـيرة ومريـرة حتـى فهمت -مثلـي مثل بقية الشـابات والشـبان- أن والـدي كان علـى حـق؛ فعسـكرة المجتمـع وصفـةٌ سـحرية خبيثـة للسـيطرة عليـه، وتحويلـه إلى قطيـع متجانـس ومطيع.

سـألها سـاخطًا: مـا الـذي تتعلمونـه في مـادة التربيـة العسـكرية؟ علـوم طبيعيـة، هندسـة، طـب، فنـون، فلسـفة، رقص، موسـيقى.؟؟ إنكـم تتعلمـون فـن القتل! فكٌّ وتركيب السـلاح، التسـديد والرمي وإلقـاء القنابـل اليدوية... ترديد الشـعارات الصباحيـة والنظـام المنضـم، ليـس إلا البدايـة. حسـن، ومـا هـو هـذا النظـام المنظم؟ هـل فكرتِ في ذلـك؟ إنه فـن الطاعـة والانصيـاع الجماعـي الأعمـى للأوامـر، دون تـردد أو تفكير: أمام سـر، تسـيرون... يمـين در، تسـتديرون... وقوف قـف تتوقفـون... وعليكـم تنفيـذ ذلـك حرفيًـا. من مـن الطلبة

يستطيع التخلف!؟ لا أحد... هكذا يبدأ الأمر، بترديد الشعار ولبس الكاكي، والزحف على الأكواع، لكنه مقدمة لما هو أخطر وأقسى، وهو القتل... عندما يأتيكِ الإيعاز: «نار»... عليك أن تطلقي النار على الهدف، دون مراجعة أو تفكير... هم من يحدد العدو «عدوهم هم»، وعليك أنتِ أن تسددي وتقتلي ذلك العدو... قد يكون الهدف امرأة أو طفلًا أو بناية تعج بالسكان... حتى لو كانت أمك هي الهدف، عليك أن تنفذي أوامرهم، وإن لم تفعلي فهم يملكون الحق بقتلك.

×××

كنتُ وحيدة أبي وأمي... وكان أخي الأكبر خضر (الابن البكر)، وحيدًا مثلي، وقد قتل في ظروف غامضة في لبنان، خلال أدائه الخدمة الإلزامية في الجيش. (هل عرفتَ الآن لماذا كنا نحب العسكر؟)... كان برتبة ملازم مجند، وقد رفّعوه بعد موته إلى رتبة ملازم أول شرف... كل ما أذكره، أنني رأيت والدي يبكي لأول مرة في حياتي! «لقد قتلوا مستقبلي... قتلوا المستقبل...»، قال ذلك وغطى عينيه بيديه. ورأيت أمي وهي تضع أختي ميساء في حجرها، كانت -يومها- صغيرة جدًا، طوقتها بذراعيها، وضغطت عليها بقوة، حتى كادت تخنقها، ولو لم تنتبه عمتي لوجه أختي المزرق، لماتت بين يدي أمي التي فقدت الوعي من شدة

حزنها على أخـي الوحيد...

بعـد بضعـة أشـهر، غـيّر أبـي رأيـه.! دخـل إلى البيـت مسـرعًا وهو يسـأل عـن ميسـاء وعن تلـك اللوحة الملونـة التي رسـمتها لأخـي خضر وهـو يرتدي بـزة الملازم أول شـرف... أخـذ اللوحـة وغـادر البيـت مسـرعًا.! كل الـذي قالـه «رح يجينـا ضيـوف»... حتـى أمـي لم تكـن تعلـم مـن هـم هـؤلاء الضيـوف... بعـد أقـل مـن سـاعتين عـاد وهـو يحمـل صـورة خضـر، وقـد وُضعت خلف زجاج شـفاف يحوط به إطار ذهبي أنيـق.! علّـق أبـي الصـورة في صـدر الصالون، ثـم ابتعد وراح ينظـر إليهـا بفخر...

لم نعـرف سـبب هـذا التحـول المفاجـئ في موقفـه، قـال إنــه وافق على الزواج، لكنه اشـترط أن يتم ذلـك بعد حصول أختـي علـى الشـهادة الثانويـة.! ربمـا كانـت زيـارة العريس الأخـيرة، برفقـة مدير الإدارة السياسـية، هي السـبب... تبين أن مديـر الإدارة صديـق قـديم لوالـدي، وهو رئيس العريس الرائـد، وقـد وافق أن يكـون عرابًا لـه عندما استعان به. كان برتبة عميد ركن، وجاء برفقة حراسـه واثنين من مسـاعديه، في موكـب من سـيارات سـوداء «مفيمـة» توقفت بجوار الشـط، وكادت تحجـب البحـر عنـا إلى الأبـد! لكـن الزيـارة كانـت قصـيرة جـدًا وحاسـمة... وافـق أبـي، وفرحـت أمـي، وبكـت

ميســاء كثيرًا!!

عندمــا همــوا بالمغــادرة، قــال العــراب الركــن لأبـــي: «أخــي «بــو خضــر» الفقر مــو عيب... انــت طول عمــرك رجل عصامــي ووطني وأبو شــهيد، وتســتحق كل خير»... وأضاف مشــيرًا إلى بيتنــا؛ أنــه آن الأوان كــي نهدم هــذا البيــت المهلهل ونبنــي غــيره... وشــجعته أمــي متفائلــة: «الله كــريم»، وبقــي والــدي صامتًا...

أدمــن -بعدهــا- علــى الكحول وبقــي حزينًــا حتى مات، بعد هــدم بيتنا بســنوات قليلة...

مــا إن تزوجت ميســاء، حتــى ترفّع الرائد أبــو صالح إلى رتبــة مقدم. أضافوا نجمة إلى كل نســر من النســرين الرابضين فــوق كتفيــه، وقــرروا إرســاله -بعــد أيــام قليلــة- في دورة تدريبيــة لمــدة ســتة أشــهر، إلى بــلاد بــاردة ملتبســة، لم يعرف أحــد اســمها. لم يســمحوا للعروس بالســفر معــه طبعًــا؛ وذلــك لأســباب أمنيــة، ولم يخبرهــا -بــدوره- إلى أي البــلاد سيســافر أو متــى وكيــف! منعهــا مــن مرافقتــه إلى المطــار، وحذرهــا مــن الثرثــرة ، والحديــث حــول هــذا الأمــر مــع أي كان من النســاء، وبخاصــة الأهــل والأقــارب والأصدقــاء والجــيران، لأن الــدورة ســرية للغاية.

ما أدهشني، أن ميساء كانت شابة فائقة الجمال، في الثامنة عشرة من عمرها، فكيف استطاع أن يتركها وحيدة!؟ لم يكن شهر العسل قد اكتمل! وكان عليها أن تسجل في الجامعة، فطلب إليها الانتظار، حتى يعود، لكن الجامعة لا تنتظر، ومواعيد التسجيل محددة، ولم يكن أمامها إلا أن تطيع الأوامر...

عادت العروس إلى بيت أهله، كما أمرها سيادة المقدم أن تفعل؛ إذ وضعها أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن تذهب مع طفليه لتسكن في قريته الجبلية، مع أهله، أو أن يأتي أهله ليسكنوا معها، في شقته الصغيرة مسبقة الصنع. كانت تريد العودة إلى «ظهر الدب»، تلبية لرغبة أبي وأمي، لكنه رفض، لأن بيتنا قديم وصغير، ولأن «الأولاد» يجب أن يلتحقوا بالمدرسة بعد شهر ونيف... كان يريد أن يضعها تحت رقابة أهله...

رافقها إلى قريته الجبلية بسيارته البيجو الرمادية، وقبل أن يغادر استفرد بها في غرفة النوم، وراح يكرر وصاياه همسًا: يجب عليك ألا تنسي بأنك زوجة ضابط، وأن تتصرفي بحكمة ومسؤولية، وأن تدركي بأن الكتمان جزء أساسي في حياتنا، وأن التفريط به، يُعد خيانة وطنية! وأن الأوامر العسكرية مقدسة ويجب تنفيذها، من دون تردد...

وعدهـا أن يشـرح لهـا ذلك كله في مـا بعد، وأكـد أن عليها، إذا مـا سُـئلت عنـه مـن قبـل أي كان، أن تقـول بـأن البلـد في حالة حـرب، وأنـه مسـتنفر٠! وإذا مـا رغبتْ في مراسـلته أو التواصل معه (عنـد الضرورة القصوى) فسـوف يتم ذلك -حصريًا- عن طريـق ضابط محدد، سـيقوم هـو بالتواصل معها٠! أعطاها اسـم الضابـط المسـتعار، ثـم قبّلها على خدهـا وطلب منهـا أن تصبر، وقال إن هـذه الدورة سـتفتح له آفاقًـا كبيرة...

بعـد منتصـف الليـل ودع أهلـه وطفليـه وغـادر، زاعمًـا أنـه منـاوب هـذه الليلة...

بكـت ميسـاء بعـد خروجـه، وهـذا أمـر طبيعـي، فالمرأة تبكي لأسـباب مختلفة، ما بالك إذا ودّعـت زوجًا بحجم مقدم٠! لكـن بكاءهـا لم يكـن بسـبب سـفره المفاجئ وحده؛ بل بسـب هـذا الغموض الـذي بدأ يلـف حياتها، والـذي لم تفهم أسـبابه بعـد؛ مـا جعلهـا هائمة قلقـة تشـعر بالغبن، وأنهـا متروكة دون علـة أو ذنـب... لا شـيء يخيـف الزوجـة أكـثر مـن الغموض، وبخاصـة غموض الـزوج، الـذي يدفعهـا إلى شـتى الظنـون والهواجس، ويجعلهـا -طـوال الوقـت- خائفـة عليـه متعلقـة بـه... ما هذه الـدورة التي لا تسـمح لهـا معرفة مـكان زوجها ومصيره٠؟ وقد بكت بعد ذلك كثيرًا جدًا...! أكثر من عشـرين سـنة مـن الدمـوع والعـذاب والخوف والـذل والغبن! كـم بكت

على صدري وكم شكَت، خلال سنوات الخوف والغموض القادمة.!

×××

كان الخريف قد ابتدأ، وبدأت العواصف ترفع موج البحر في «ظهر الدب» وتدفعه بقوة ليستعرض رغوته البيضاء فوق صخورها، ويبلل، برذاذه المالح الممزوج بالمطر، أشجار الكينا المهيمنة على دارنا... زارتنا ميساء، وكان همها أن تسجل في الجامعة قبل فوات الأوان. كانت مرتبكة وحيرى، أمَرها سيادة المقدم قبل سفره بالتريث! ولم يكن هذا وحده ما يربكها، بل رفضه القاطع المبدئي؛ أن تسجل في كلية الفنون، حلمها الوحيد.!

«ألم تجدي غير هذا الفرع!؟» قالها متعضًا... وكانت علاماتها تخولها التسجيل في أي فرع آخر، لكن عشقها لفن الرسم والنحت كان طاغيًا. وكان أبو صالح يكره الفن: «هذه موهبة من عند الله، لا تحتاج إلى دراسة وجامعات! تستطيعين ممارستها في البيت، وفي أي وقت تشائين، أنا على استعداد لتأمين كافة المستلزمات. علاماتك تسمح لك بالتسجيل في أي فرع. سجلي علوم سياسية، أو حقوق.! لماذا لا تسجلين في كلية الحقوق أو الاقتصاد السياسي!؟»

جاءت كي تبحث الأمر مع أبي، ماذا تفعل؟ استبعدت

العلـوم السياسـية والاقتصـاد، وعليهـا أن تختـار بـين دراسـة الفـن التشـكيلي والحقـوق... كان أبـي أكثر مـن شـجعها على الرسـم، منـذ صغرها... سـجلها، على الرغم مـن اعتراض أمي، في دورات عـدة، لتعليـم الفـن التشـكيلي بالمدينـة، وراح يعلق لوحاتهـا وأعمالهـا اليدويـة في زوايـا البيـت وعلـى حيطانـه، ويعرضهـا بفخـر علـى ضيوفـه، وبخاصـة تلـك اللوحـة التي رسـمتها لأخي خضر بلباسـه العسـكري! أجّل حاجات البيت واشـترى ما تحتاجه من ألوان وفُرش ومسـتلزمات فنية... كان يحلـم أن تصبـح ابنتـه فنانـة تشـكيلية، لكنـه احتار -الآن- مـاذا يفعـل أو يقول لهـا، فاكتفـى بالصراخ والاسـتنكار: ولماذا يرفض!؟ لماذا يكـره الفن!؟ لماذا...!؟

نصحهـا والدي ألا تغضـب زوجها؛ لكن قرارنـا النهائي (أنـا وميسـاء) كان أن تسـجل في الكليتـين معًـا، علهـا تسـتطيع إقناعـه -عندمـا يعـود- في دراسـة الفـن التشـكيلي... بحثـتْ عن إحـدى لوحاتها القديمـة، وقررتْ تقديمهـا إلى كلية الفنون، بحسـب الشروط المطلوبـة. وهـي لوحـة غاليـة علـى قلبهـا، لأنهـا لأخي خضر... رسـمته -خلسـة- بقلـم الرصاص. كان يومهـا يحضـر للثانوية العامة، وكان شـعره طويلًا أشـعث وقد ارتـدى قميصًـا داخليًـا أبيضـ، جعلته أشـعة الشمس يتوهج، وهـو يقـرأ أمـام النافـذة... لكنهـا خبأتهـا في السـقيفة، بعيـدًا عـن عـين أمي التـي أصيبـت بمرضـ القلب بعـد موتـه، وتصاب

بالاكتئاب، كلما رأت صورته هذه المفعمة بالحياة والحب...

×××

عاد بعد ستة أشهر تمامًا...

كان قد اتصل بها مرات عدة، لكنها لم تجرؤ على إخباره أنها قُبلت في كلية الفنون. أقام الدنيا ولم يقعدها، ولم يكتف بمنعها من الدوام، بل ذهب -شخصيًا- إلى فرع الكلية لإلغاء تسجيلها، وسعى بنفسه لقبولها في كلية الحقوق! وقد تمكن من تسجيلها باستثناء خاص، من وزير التعليم العالي، على الرغم من مضي أكثر من أربعة أشهر على الدوام في جامعة تشرين.

خلال أربع سنوات فقط، حصلت على شهادة الليسانس بالحقوق، وبدرجة امتياز...

لم تفهم سبب هذ التعصب والغضب، وهذا الحرص الزائد على سمعته، حتى علمت أنه نُقل من الإدارة السياسية إلى إدارة المخابرات العامة بدمشق.! ولم تكن تعرف الفرق بينهما، لكنها لاحظت البون الشاسع بين سيارة «البيجو» العتيقة التي كانت بحوزته، منذ سنوات قليلة، وسيارة الـ «مرسيدس» الجديدة، التي سلموه إياها مع سائقها! ولم يمض شهر واحد على تعينه، حتى قام بفرز سيارة رينو حمراء

جديـدة، خاصـة بها، مع سـائقها العجوز الـذي اختاره من بين أقربائه...

ظنـت أنهـا تعـرف كل شـيء عنـه، مـع أنـه كان ممنوعًا عليهـا التدخـل في عملـه وشـؤونه الأمنيـة. حتـى الأسـئلة البسـيطة كانت محظورة... وكان مسـتنفرًا دومًا، ولم يـكن ليله ليـلًا ولا نهـاره نهارًا... وهـو مسـتعد -دائمًا- لمغـادرة المنزل في أي وقت، وليس مـن حقها -أبدًا- معرفة السـبب.! في السـابق، كانـت تملـك بعضـ الحـق في السـؤال أو التسـاؤل، لكنهـا -اليـوم- مُنعـت من أشـياء كثيرة...! اشـترى لهـا هاتفًـا جديدًا، وخطًـا أمنيًـا خاصًـا، وتم إجبارهـا علـى حـذف ونسـيان أغلب صديقاتهـا. لم يعـد مـن حقهـا الخـروج في أي وقـت تشـاء، كمـا في السـابق.! باتـت تحتـاج إلى إذن وموافقـة! ولم تعـد تسـتطيع التسـوق ولا مصادقـة أيًـا كان، ولا زيـارة أحـد (بمـا في ذلـك أهلها)، إلا بعد دراسـة أمنية مسـبقة، كان يجب على الصديقة أن تبـيّن سـبب الزيارة وأن تنتظـر الموافقة الأمنية مدة أسـبوع أحيانًـا.! وصـار الأمر أصعـب، عندما وضعوا حراسـة مشـددة علـى البنايـة الجديـدة التي تسـكنها، والتي تراقـب الداخلين إليهـا والخارجـين منها، وحتـى العابريـن بقربها.!

هذا كله، لم يـكن شـيئًا يذكـر بعد، فما إن ترفّع -خلال سـنوات قليلـة- إلى رتبـة عميد، وعُين رئيسًـا لــ «أحد الفروع

الأمنيـة»، حتـى انقلبـت عيشـتها إلى جحيم لا يطـاق... (نعم، أحـد الفـروع الأمنيـة.! فمـن يسـتطيع معرفـة أسـمائها.؟ إنها محض أرقـام، تشـبه أسـماء المعتقلين في تلـك الفـروع، الذيـن تحولـوا -لأسـباب أمنيـة أيضًا- إلى أرقام!)...

انتقلنـا جميعًـا إلى العاصمـة دمشـق، مـع كتيبـة كبيرة مـن أقاربـه وأصدقائه وحراسـه الموثوقين، وظـل أبي في «ظهر الـدب»، كي يشرف علـى إعـادة ترميم دارنـا العتيقـة، كما قيل لنا...

كانـت ميسـاء تظهـر معـه وترافقـه في الزيـارات والمناسـبات الرسـمية تحديـدًا، وربمـا تـزوج بأختـي لهـذا السـبب، فهـو لا يسـتطيع أن يلبـي دعـوة دبلوماسـي، أو يزور ملحقًـا عسـكريًّا يقيـم عشـاء في بيتـه، دون اصطحـاب أختـي معـه، حيـث يرتـدي عندهـا بذلـة مدنية وربطـة عنـق أنيقة، وتسـرّح ميسـاء شـعرها في صالـون خاص، وترتـدي أجمـل الفسـاتين التـي كانـت تشـتريها من شـتى عواصم العـالم. فقد كان يضطـر -بعض الأحيـان- لصحبتهـا في زيـارات خارجية إلى موسـكو وباريـس ولنـدن وبرلـين ورومـا ومدريد...الـخ، وذلك حسـب المناسـبة ونوعية الزيـارة... كان التجار الكبار يتسـابقون لتقـديم الهدايـا لهـا ولزوجها، ويكـون محظوظًا ذاك

الـذي تُقبل هديته من تجـار الحميدية[1]، وحتى سـوق الهال... دارت نصـف الكـرة الأرضيـة، خـلال بضـع سـنوات، حتـى أنهـا ملّـت من السـفر والسـهر والفنـادق والبروتوكولات، لكن قرارهـا لم يكـن بيدهـا، وإذا ما كان الجـنرال ضمن وفـد مرافق لسـيادة الرئيس، وأمرهم باصطحاب زوجاتهم، فلا يسـتطيع أحـد المناقشـة، بما في ذلـك السـيدة الأولى...

كانـت تخـبرني بـكل شـيء عـن حياتهـا الخاصـة، منـذ ليلتهـا الأولى وحتـى الأخيرة، لكنها لم تتحدث أبـدًا عن حياتها العامـة! حدثتني حتى عن موشـحات الدم الـوردي فوق غطاء السرير، وعن نزيفها وفـم بكارتها كيف تمزق... وعلى الرغم مـن أننـي لم أكـن قـد جربت ذلـك بعد، غـير أني كنـت أعلم - كأي أنثـى- أن للبكارة فـم حقيقي، تحيط به شـفتان صغيرتان ولسـان قصـير كمنقـار يمامة، وكنـت أعلم أن للرجال شـاربين فـوق الشـفتين، وخصيتين بـين الفخذيـن، تغطيهمـا عانة كثة سـوداء مثلثـة خشـنة كشـعر تيس، في زاويتها السـفلى يبرز كائـن بحجم قبضة اليد، ذو قبعة ورديـة كقبعة فطر الغابة، يسـمونه «عضوًا تناسـليًا».! وقـد أخافها هـذا العضو الثخين، عندمـا رأته مشرعًا لأول مرة، ثـم صارت أطواره أليفـة بعدها، حتـى عندمـا تحول -مـع السـنين- إلى محض مدقة لجـرن هاوون بلاسـتيكي بـلا روح، ما يلبـث أن يذوى ويصبـح بلا فائدة!

---

1 - الحميدية سوق قديم مسقوف من أشهر أسواق دمشق

لم تكن تخفي عني شيئًا... حتى أنها قالت لي مرة، إنه يمنعها من حلاقة شعر عانتها، لأن الجنرال يحب عش اليمامة -على ما يبدو- أكثر من الزغلول الأزغب، ويفضل ريشه الأشعث أكثر من منقاره الوردي...

كنت أعرف أدق التفاصيل والأسرار التي عاشتها وتعيشها، فأنا أكبر منها سنًا، وهي تعيش وحيدة غريبة في بيتها، مثل أي موقوفة بزنزانة منفردة، في فرع من فروع الأمن.! وهي ليست ككل النساء، تستطيع أن «تحرد[1]»، ولا تملك حق الطلاق أو التمرد، أو تمتلك القدرة على البوح لأحد غيري.! حتى أن سيادته صار يمقتني (لهذا السبب على الأقل)، ولذلك، أهداني هاتفًا أمنيًا جديدًا، كي يتمكن من مراقبتي، وركّب -سرًا ودون خجل- أجهزة تنصت وكاميرات مراقبة في الصالون والمطبخ وغرف النوم، وحتى داخل الحمامات. ولم يكن أحد ليجرأ على نزعها أو تعطيلها.

كانت أمي تنتظر أن تصبح جدة؛ وعندما طال انتظارها، سألتني إن كان «العطل من أختي»! قلت «بل العطل منه هو»! فاستغربت! وذكّرتني بأن لديه صبيّين.! ولأنني لا أرغب في أن تعرف الحقيقة، قلت إنه منعها من إنجاب الأطفال، وعندما أصرت على معرفة السبب الحقيقي، أخبرتها

1 - حرد: أَبدى استياءً بتقطيب الجبين. لكنها باللهجة الشامية مغادرة الزوجة لبيت الزوجية إلى بيت أهلها مخاصمة.

أنـه أجبرهـا على إجـراء عمليـة تعقيم...

لم تكـن لتفهـم معنـى ذلـك، ولا أنـا طبعًـا. أخبرتهـا بمـا قالـه سـيادة العميد لميسـاء: عملية بسـيطة جدًا، يتـم تنفيذها عـن طريق ربط قنـوات فالوب، تمنـع البويضة مـن الدخول إلى تجويـف الرحم، ونسـتطيع تحريـر المبيضين طبعًـا، عندما نفكر بالإنجاب.!

كـم كان أنانيًـا وظالمًـا وخبيثًـا!! لكـن، حتـى لـو أن ميسـاء كانـت ملمـة بالمخاطـر الحقيقيـة التـي تنتظرهـا، فهـل كانـت تسـتطيع الرفض!؟ ومن أيـن لها أن تعرف بأن الشرع يحـرّم الإعقـام ويجرّمـه، وأنـه -حسـب القانـون- يحتـاج إلى موافقـة خطيـة مـن قبـل الزوجين، تبـيّن -بشـكل جلـي- رغبتهمـا بإجـراء العمليـة، وأن الأطبـاء ملزمون -قبـل التنفيذ- بشرح كافـة المخاطـر التي قـد تتعرض لهـا المـرأة، وبخاصة تزايـد فرص الحمل خـارج الرحم، وخطـر الإصابة بسـرطان الثـدي، فضـلًا عـن أنها لـن تنجـب بعدها أبـدًا... لكن سـيادة الجنرال اقتادهـا إلى عيـادة خاصـة، لا علاقـة لهـا بالقانـون ولا بالمخاطـر.! وقـد علِمنا -ميسـاء وأنـا- بعد إجـراء العملية بوقت طويـل؛ انها جريمة قتـل موصوفة... واكتشـفنا -أيضًا وأيضًا- أنها تسـتخدم في المعتقلات كوسـيلة لابتزاز النساء والرجال، علـى الرغم مـن أنها عملية جراحيـة مكلفة، بعد أن سـمعنا عن

عمليات الاغتصاب وبتر الأثداء والأعضاء في المعتقلات، وغيرها من الوسائل البشعة التي تجري هذه الأيام.! لم يكن أحد غيري يعرف ما حدث، فميساء لا تجرؤ على إخبار أي كان بأسرارها الشخصية التي يعتبرها الجنرال جزءًا من أسرار الدولة؛ وأنا -بدوري- لا أجرؤ على البوح بها لأحد.!

نبهها -منذ اليوم الأول- أنه لا يريد الإنجاب الآن، ثم قال إن لديه ولدان، ولا يرغب بالمزيد! لكن رحمها كان خصبًا، لدرجة أربكته، فقد حبلت وأجهضت مرات عدة، ولم تنفعها العقاقير ولا الحقن ولا الواقي الذكري، ولا حتى الحلقة المهبلية «اللولب». وكان -كل مرة- يحمّلها وحدها المسؤولية، فأمرها -أخيرًا- أن تجري هذه العملية «البسيطة» التي أدت -بعد موته- إلى إصابتها بسرطان الثدي!

- 2 -

توقفتُ عند عبارة «إصابتها بسرطان الثدي» ووضعتُ خطًا تحتها وتحت عبارات وتلميحات كثيرة غيرها؛ فالتعقيم لا يؤدي بالضرورة إلى الإصابة بسرطان الثدي! هذا ما أكدته لي إحدى الطبيبات، والأهم من هذا، اعترافها في هذا المقطع -دون قصد- بقولها الصريح: «كنت وحيدة أبي وأمي»!. وهذا ما أعرفه جيدًا! وهي تعرف أنني أعرف! مرة تقول -عند حديثها عن استشهاد أخيها- إنها رأت أمها وهي تضع أختها ميساء في حجرها، وكانت -يومها- صغيرة جدًا، والآن تقول بأن ميساء هذه رسمت أخاها خضر -خلسة- بقلم الرصاص. وكان يومها يحضّر للثانوية العامة...! ثم إن الأخ الوحيد غير ملزم بالخدمة العسكرية أصلًا! فمن هو خضر،

ومـن هي ميسـاء هذه؟ وكيـف تمكنت مـن اختراعها؟ ولماذا.؟

لا تتقــن الروايــة الكــذب، لأن العــين التــي تكتبهــا إذا كانــت واحــدة، فالعيــون التــي تقرأهــا، أكــثر آلاف المرات مـن عـدد صفحاتهـا وربمـا، كلماتهـا وأحرفهـا! فهـل تسـتطيع الروايــة أن تصـل إلى الحقيقـة عن طريـق التـكاذب والتّنكر!؟ لقـد اخترعـتْ شـخصية ثانية وراحـت تتحدث عنها ببسـاطة واطمئنـان! من السـهل أن يفعـل الكاتب ذلك، لكـن كيف يقنع الآخريـن بمـا كتـب!؟ هـل نسـيتْ مـا كتبتـه سـابقًا: «كنـت وحيـدة أبـي وأمـي»، أم أنهـا لم تنتبـه، فأخطـأت دون قصد!؟ الخطـأ -هنـا- ليـس طباعيًـا! والأخطـاء الطباعيـة واردة، لكنهـا زلة لسـان، تكشـف النوايـا الحقيقـة لصاحبها، ومـا يخفيه بين السـطور مـن نوايا...

لا بأس يـا سـت «طهـران زهـر البـان»، قلت لي إنـه ثمة تشـابه بالأسـماء، وإنك سـتقولين الحقيقة.! أقسـم إن اسـمك - أيضًا- غـير حقيقي... هذا واضح، وقد فهمـتُ لعبتك وقبلتُ أن ألعبهـا. تريديـن أن ترتـدي قناعًا!؟ لكنـك بذلك إنما تكشـفين عـن وجهـك الحقيقـي.! أم تريديـن أن تصلـي عـن طريـق «الكـذب» إلى الصـدق؟ الحقيقـة لا تحـب الثيـاب المزركشـة، فهـل تخجلين مـن الحقيقـة العاريـة، أم تخافـين مـن قولهـا؟ لا بأس، ليكـن مـا تريديـن! ومـن يـدري، قـد تكونـين معذورة،

لكننا -لحسن الحظ- نسير في الطريق الصحيحة، لا بأس من الخجل والكذب اللذيذ والتخفي؛ فالفن يقوم على هذا النوع من التكاذب، أكثر الفنانين كذبًا، أكثرهم صدقًا.! وطالما نتحدث الآن عن الجنرال، فلا فرق بعدها، إن كنت أنتِ زوجه أم أختك ميساء...

وضعت خطًا آخر تحت جملة «كنت وحيدة أبي وأمي»، وميزتها بالأصفر، كي أرى ردة فعلها... لكنني لم أتمكن من متابعة القراءة... أصابني ضيق شديدة ورغبة غامضة في الصمت؛ عندما تذكرت أنها أنثى فقدت أحد ثدييها؛ ولذلك، ربطتْ يديّ بالسرير وغطتْ وجهي، في تلك الليلة الماجنة...

× × ×

لم أصدق ما رأيت! ظننت أني أخطأت العنوان... فقد اقتلع بيتنا القديم من مكانه، وعدد آخر من بيوت الحي القريبة، لم يبق له من أثر! تحولت الحديقة الصغيرة إلى ساحة من الرمل والحصى والحفر الكبيرة المليئة بالماء... اقتلعت أشجار الكينا العتيقة التي كانت تنحني على بيتنا وبيوت الجيران، لم يبقَ منها سوى أوراقها التي ما زالت خضراء.! وهُيء لي -ولا أدري لماذا- أن مكروهًا ما قد أصاب أبي، لو لم أرَ الأشجار مرمية في مكان قصي، وأشاهده يقف

هناك بـين الجرافات والرافعات، يراقب العمـل، وقد حمل بيده قضيبًـا، ولبسـ «جزمـة» كاوتشـوك حمـراء، وارتـدى قبعة رجـال الأعمـال البلاسـتيكية اللامعـة التـي تشـبه قبة المزار، وراح يصـدر أوامـره بسـاعديه، لأن الضجيج لا يسـمح لأحد أن يسـمع مـا يقول...

كان عـدد البلـدوزرات الضخمـة والجرافـات الصفـر والشـاحنات الكبـيرة والرافعـات العملاقـة، أكـبر بكثـير مـن صخـور «ظهـر الـدب» العاليـة! وكان معظمهـا تابـع للجيش، أو لـوزارة الأشـغال أو البلديـة أو وزارة النقـل أو الزراعـة أو النفـط... كان عـدد قليـل منهـا يتبـع لشـركات خاصـة تبرعـت للمشـاركة في هذا المشـروع! أمـا العاملون والمهندسـون والمراقبـون... فجميعهـم مـن العسـكر وموظفـي الدولـة.! أبي كان هـو المشـرف العـام علـى التنفيذ.!

أكـوام البحصـ والرمـل الضخمـة جعلتنـي أظـن في البدايـة أنهـم جـاؤوا لكـي يردمـوا البحـر! لكـن تبـين أنهـم سـيقومون ببنـاء قصـر كبـير للجنرال «أبو صالـح»... خرجت مـن السـيارة الأمنية التـي أقلتني إلى المـكان، ووقفت أتفرج مع النسـاء والأطفـال الغرباء الذين احتشـدوا لمراقبة ما يحدث...

لم أكـن أتخيـل أن يكـون الـدب الشـامخ ضعيفًـا لهـذه الدرجـة! كنـت واثقـة بـه، متأكـدة مـن أنـه قـوي راسـخ

كالجبل، لا أحد يستطيع ترويضه أو هدمه، ومهما ساءت الأحوال فهو لن يركع... ألم يصمد منذ الأزل أمام أعتى العواصف والزلازل!؟ ألم يقف في وجه البحر ويصد أمواجه عنا.! أليس هو «من كان يحمينا من الغرق»؛ كما كان أبي يقول... رحت أبكي بحرقة وصمت، لم أجرؤ على الاقتراب من أبي خضر (والدي)! جئت من دمشق كي أزوره في شقته الفارهة التي اشتراها في أرقى أحياء اللاذقية؛ لأنني اشتقت إليه، لكنني طلبت من سائقي أن يعرج على «ظهر الدب» أولًا، كي أرى بيتنا القديم... وليتني لم أفعل...

عدت دون أن ألتقي به... وحاولت -طوال الطريق- أن أقنع نفسي بأن ما رأيته محض كابوس.! كانت أمي تزوره بين حين وآخر، وتعرف كل شيء عما يحدث؛ لكنها لم تخبرنا -أنا وأختي- أنهم سيقتلون الدب الذي كنا نحب، وينزلونه عن عرشه. يبدو أن هذا -أيضًا- كان سرًا من أسرار الدولة! لكن هذا السر سرعان ما تحول إلى قصر بحجم بارجة حربية عملاقة، تقف على حافة الشاطئ، يحميها من اليابسة سور مرتفع ذو أبراج مرتفعة، ويقف على بابها حراس مسلحون... بارجة، يقال إن قبوها العميق يحتوي على مستودعات ضخمة، وسجن كبير وزنازين ضيقة، وفوق سطحها مهبط خاص بالحوامات، ومنارة تضيء الليل بالأحمر والأزرق، وبرج من رخام للمراقبة، مع ملحق من

زجاج له شرفة خاصة، صممها والدي بنفسه، كي تصبح مكان إقامته...!

سرعان ما تحول اسم قريتنا «ظهر الدب» إلى اسم جديد هو «البارجة»! هكذا سمى أهل القرية القصر، مستبدلين بسهولة اسم قريتهم باسمها... ولم يمض وقت طويل حتى أصبح أبو خضر متعهدًا مشهورًا، ليس في مدينتنا وحسب، بل في أنحاء البلاد كلها، يمتلك في كل مدينة بيتًا أو قطعة أرض أو بستانًا... لكنه ذات ليلة انتحر... جلس وحيدًا، بمواجهة البحر، على الشرفة الزجاجية للبارجة... أكل خروفًا مشويًا على الفحم، وشرب كمية هائلة من الويسكي الفاخرة، ثم صعد فوق البرج الرخامي، وألقى بنفسه فوق الصخور، كما كان يفعل سابقًا، العشاق والممسوسين والقانطين...

لم أستطع أن أصدق ما حدث، حتى الآن! كان أبي يتألم، يصارع وجدانه بصمت؛ منذ أن وافق على ذلك الزواج المشؤوم... منذ أن قال له عميد الإدارة السياسية: «أخي بو خضر الفقر مو عيب... انت طول عمرك رجل عصامي ووطني وأبو شهيد...» منذ أن أشار إلى بيتنا وقال: «آن الأوان لهدم هذا البيت المهلهل»؛ وأبي يصارع وجدانه... لم تسعفه السلطة ولا الثروة المفاجئة ولا صهره المتنفذ، كما لم يسعفه

الإدمان على الخمرة، في إسكات صوت ضميره الحي الذي انتصر عليه أخيرًا...

قلت في نفسي، وليسامحني الله: البحر -أيضًا- يعرف كيف ينتقم...

× × ×

كنت أقضي كل عام -مع أختي- شهرًا كاملًا من فصل الصيف، في هذا القصر المهيب.! وكان أهالي قرية «البارجة» -نساء ورجالًا- يتجمعون أمام الباب الحديدي العملاق كل يوم، وبخاصة عندما يعلمون بوجود سيادته، أو وجودنا... يصطفون بانتظام غريب في طابور طويل أمام المحرس، كما يحدث في الدول الراقية، لا شيء يفرح سيادته كالنظام! عندما يرى صف الطوابير المنتظم يشعر بسعادة غامرة... النظام هو الوطن، كان يقول، خط مستقيم... وكثيرًا ما أوقف مقابلة الناس وأمر بطردهم إذا ما نظر من النافذة ووجد أن الخط ليس مستقيمًا! والناس يعرفون ذلك، فينتظرون ساعات طويلة تحت الشمس، كي يحظوا بلقائه، ولو لدقيقة واحدة! منهم من يريد أن يؤجل ابنه عن الخدمة العسكرية، ومنهم من يريد أن ينقل ابنته إلى مكان أفضل، ومنهم من يريد أن يتظلّم أو يشكو، أو يبحث عن وظيفة مناسبة لزوجه...الخ، وكلهم يرغب بتقديم هدية ثمينة

تليـق بمقام سـيادتـه... أما أولئك الذين يـودون أن يعرفوا مصير أبنائهـم المعتقلين السياسـيين، فـكان الحراس يطردونهـم، ولا يسـمحون لهـم حتـى بالاقـتراب، فيدفعـون بنسـائهم لمقابلـة أختـي أو أمـي أو مقابلتـي أنـا علـى الأقـل؛ راجـين أن يصـل صوتهـم إلى سـيادتـه، بشـكل أو بآخـر!

ومـن الطريـف، أن يتحـول اللقـاء بالجـنرال إلى تجـارة رائجـة، أخذ يمارسـها بعض السماسـرة والوسـطاء مـن الأقرباء أو الأصدقـاء، وقـد اكتفـى البعضـ بالاعتمـاد علـى هـؤلاء «المقربـين»، كـي ينقلـوا صوتهـم إلى سـيادته، مقابـل لـيرة ذهـب أو مبلـغ مـن المـال تحـدده أهميـة الموضـوع وملابسـاته؛ فـكل قضية لها سـعر، ولـكل طلب ثمن! فمن يريد أن يتوسـط لمهـرّب بضائـع، ليس كمن يريـد أن يشـفع لتاجر مخدرات أو سـلاح، ومن يريد أن يسـأل عـن مصير مزوّر عملة، ليس كمن يريد أن يستفسـر عـن مصير معارض أو معارضـة معتقلة.! وقد استشرى الأمـر لدرجـة أن الجـنرال أمـر بالقبضـ علـى بعضـ هـؤلاء، وحبسـهم لديـه في قبـو القصر.

مـا يهمنـي هنـا، ليسـ هـو، ولا بارجتـه، ولا هـؤلاء السماسـرة أو الزبائـن، بـل تلـك النسـوة المعتقـلات اللواتي تم القبضـ عليهـن كرهائن عـن أزواجهن أو أولادهـن الهاربين من وجـه السـلطة، أو تلـك الشـابات اللواتي خرجـن بالمظاهرات

أو كـن ناشـطات في إسـعاف الجرحـى وتقديم الطعـام أو الدواء أو الملابس، للنسـاء والأطفـال والمرضـى المحاصريـن في الغوطة وغيرهـا، وأولئـك المشـردين الذين هُدمـت بيوتهـم وهربوا من تحـت القصـف إلى سـاحات دمشـق وحدائقهـا... كان تنظيـف أوسـاخهم، وإسـعاف الجرحـى الذيـن أطلقـوا عليهـم النـار، ممنوعًا...!

عرفـتُ قصصًـا، لا يصـدق العقـل أنهـا يمكـن أن تحـدث في عصرنـا، ورأيـت أمهات بائسـات يائسـات حقيقيـات، حاولن تقبيـل يـدي وقدمـي، وعيونًـا غارقـة بالدمـوع، تسـتجير بي وتسـتعطف قلبـي. كنـت أعـرف بعضهـن منـذ الصبـا، بنـات ضيعتـي وجيلـي. وكان يجـب علـي أن أكـون قاسـية حازمة معهـن، وأن أضـع مـكان قلبي حجـرًا أصـم، ولسـانًا أبكم...

عرفـت تفاصيـل سـيُكتب عنهـا مئـات، بـل آلاف الكتب التـي تصـف مـا حدث ومـا يحـدث في أقبيـة العـار تلك... وفي بعضـ الحـالات بكيـت مرغمـة وسـالت دموعـي أمامهـن علـى عنقي دون أن أشـعر، وعندما وصل -ذلك- إلى مسـامع سـيادته، وعـرف أنني أعـرف الكثير، زجـرني ووبخني واتهمني، ليس بالتعاطـف معهـن، بـل بأننـي أقبضـ منهـن مقابـل خدماتـي! نعتنـي بالقـوادة والعاهـرة وخائنـة الوطـن، ولم يتـورع عـن طـردي فـورًا مـن البارجـة، ومنعي مـن الدخـول إليهـا، مهددًا

بحبسـي، إذا وصلتـه عنـي أي ملاحظـة أو سـلوك غير سـوي، وبقطـع لسـاني إذا نطقـت بأي كلمة تمس أمن البلد وسـيادته.!

أكـثر مـن كان يكرههـم ويحتقرهـم هـم المتظاهريـن الشـباب. «بدهـن حريـة!!![1] طيييـب...» أمـا الناس العاديون: الأقـارب وأبنـاء البلـد والجيران والمعـارف مـن الموالـين، وأولئك القادمـين مـن المـدن والأريـاف البعيـدة، الذيـن يحملـون في جيوبهـم أخبـارًا وأوراقًـا مشـبوهة؛ فـكان على اسـتعداد دائم لاسـتقبالهم والترحيـب بهـم، وكان يفضـل أن يـزوره بعضهم في البارجـة، وليس في فـرع التحقيـق، وذلـك بسـبب سـرية العمـل وإبعاد الشـبهة عـن المخبرين! كانـوا مسـتعدين لتقبيل حذائـه، كمـا كان هـو مسـتعدًا دائمًا لمسـاعدتهم والاسـتماع إلى أقوالهـم وشـكواهم، ولا يتأخـر -بعض الأحيـان- عن تقديم الأمـوال لهم.!

كانـت الحـرب قد بـدأت، والقـرار قـد اتخـذ: «إما كل شـيء أو لا شـيء.!» وغـرق الجيش، وبخاصـة المخابـرات، في بحـر من الـدم. ولم تعد ميسـاء تـرى زوجها إلا لمامًـا، فوجدتها فرصـة مناسـبة لتكمـل بعض اللوحـات التي بدأت برسـمها، ثـم ركنتهـا جانبًـا: طبيعـة صامتـة، زخرفـة، منمنمـات... فشـلت بممارسـة اختصاصهـا في الحقـوق، وملّـت مـن القـراءة؛

1 - يريدون الحرية

فاستسلمت لظروف حياتها... أما حنينها للرسم فلم يتوقف يومًا، لكن انشغالها وسفرها الدائم منعاها من إكمال المشاريع التي تبدأ برسمها، متحمسة كالعادة، ثم فاقدة لرغبتها بالحماسة ذاتها.! كانت تعيش حياة هنيّة باذخة، لا ينقصها شيء ولا يعكر صفوها مكروه غير القلق على زوجها وابنيه «صالح وعلي» اللذين تركا الجامعة وحملا السلاح دفاعًا عن الوطن، وعلى أخيه الملازم القناص «حيدرة» الذي أصبح برتبة رائد في الحرس الجمهوري...

تقضي الصيف في البارجة بجوار البحر، وتكنكن في الشتاء داخل شقتها الفارهة، وكي تقتل الوقت، قررت أن تعود إلى الرسم! لم تغير الحرب شيئًا يذكر في حياتها الرتيبة، لكن تنقّلها لم يعد آمنا وحياتها صارت متوترة، يغلب عليها الترقب والخوف، فانتقلت -بأمر منه- للسكن في البارجة، وتحويل ركنًا من قصرها، إلى مرسم واسع يطل على ذلك البحر، لكنها طلبتْ إليه أن يسمح لي بمرافقتها، فوافق على مضض؛ شريطة أن أقفل فمي وأمتنع عن مقابلة الناس...

×××

كنت أسمع باغتصاب النساء داخل الفروع الأًمنية، وكانت ميساء تسمع مثلي بالتأكيد، لكنها لم تكن تريد

أن تصغـي لتلـك الأقاويـل أو تصدقهـا. وكيف لهـا أن تصدق وهـي زوجـة جـنرال همام ذائـع الصيت، لـه كل هـذه المهابة والاحـترام والتقديـر، حتى من قبل سـيادة الرئيسـ... وصفه رفاقـه أنـه ضابـط اسـتثنائي فـذ مخلص ومحبـوب، ليس مـن القيـادة العسـكرية وحدهـا، بـل السياسـية أيضًـا! مـن مـن الـوزراء أو النّواب أو قادة الحزب الحاكـم كان يجرؤ أن يرد له طلبًـا...! طلباتـه كانت أوامـر، وكان يملـك الحق بإلقـاء القبض علـى كل مـن يخالـف أوامـره أو ينتقـده مـن المسـؤولين... أما المرافقـين وعناصـر الحراسـة والسـائقين... فكانـوا يحترمونـه لدرجـة أنـه إذا مـا صفع أحدهـم، أو صـرخ في وجهه: «وطي راسـك يـا حيـوان»، نكّـس المسـكين رأسـه، ولم يعـد يجـرؤ علـى النظـر في عينيـه طوال شـهر، بـل يكتفي بالقـول حاضر سـيدي... أمـرك سـيدي... حتى أنـه صفع مـرة ضابطًا شـابًا برتبـة نقيـب، فخـرّ علـى حذائـه وراح يقبلـه وهـو يكـرر «والله غلطـان يـا سـيدي... سـامحني يـا سـيدي...» ولا يكـف عـن ذلـك ولا يكتفـي، حتى يركلـه بقدمه ويقـول له: عد إلى عملـك»... لكـن أحدًا منهم لم يذكـر أو ينّوه إلى أنه كان يعاني مـن رهاب مزمن من الفئـران والصراصير، وأنه يهرب من المكان الـذي يكتشـف وجودها فيـه.! كان هذا الوسواس القهري - أيضًـا- سـرًا خطرًا من أسـرار الدولة، لا يعرفـه أحد، ولا يحق لأي كان أن يطّلـع عليـه... وقـد رافقـه هـذا السـر إلى أن مات،

فانتشر مـن بعده، وبـات معروفًـا للجميع...

كيـف تصدقـين هـذه الخزعبـلات.! كانـت تقـول لي، وتضيـف بـإن سـيادة الرئيس يثـق بـه شـخصيًا، حتـى أنـه اتصـل بـه -أكـثر مـن مـرة- وكلفـه بمهمـات خاصـة، لم يكـن يفصـح عنهـا أو يبـوح بها لأقـرب المقربين إليه، بمـا في ذلك هي طبعًا !

فاجأهـا مـرة بسـؤال لم يخطـر علـى بالهـا! كان قـد شرب زجاجة وسكي كاملة! مال على نهدها في غرفة النوم، وقـال فجـأة: هـل ترغبين أن أشـتري لـك كلبة؟ لم تعـرف بماذا تجيـب!! ولم يكـن السـؤال مناسـبًا... وكـي تطمئـن، استلقى علـى السرير فاتحًـا سـاقيه شـاخصًا إلى السـقف، كمـا لو أنه يحلـم، وراح يصـف لهـا الكلبة التـي يرغب في شرائها: نوعها حجمهـا لونهـا... كان يتحـدث كمـا لو أنه يعرفهـا ويراها... وفي لحظـة حـب نـادرة، قـال لهـا بعـد السرير إنـه سيسـميها «لولـو»، وأخـذ يقص عليهـا قصة الكلبـة لولو التـي هاجمت فـرع التحقيـق بحثًـا عن أحـد الموقوفين:

وجـدت نفسـي مضطـرًا لطلـب معلومـات كاملـة ومفصلة عن تلك الكلبة العجيبة، حتى أن مسـاعدي اسـتغرب الأمـر.! هـل تعلمين لمـاذا طلبت ذلـك؟ لأنني ما إن رأيـت عينيها حتـى وقعـت في غرامهـا... سـأختار لـك واحـدة تشـبهها تمامًا:

حجمها صغير لدرجة أنها إذا عضتكِ لا تشكّل خطرًا على حياتك. وهي رشيقة كالقطة، تملك قدرة فائقة على اللعب والهرب والاختباء والمناورة والتربّص بك. اسمها «لولو»، كلبة بيضاء كاللؤلؤ يغطي جسمها صوف كثيف. ومع أنها من فصيلة الثعالب، طويلة الخطم، غير أنها متدلية الأذنين، لطيفة الشكل، كلعب الأطفال. وهي متوترة وشرسة بشكل مضحك، إذا اقتضى الأمر. عيناها سوداوان مستديرتان، مثل زرين من البلاستيك، تلمعان خلف خصلات غرتها الطويلة. قال الطبيب البيطري لصاحبها مؤنس إن غرتها هي السبب في توترها وشراستها. ولذلك نصحه أن يقصها بين فترة وأخرى. لكن تلك الغرة -على ما يبدو- كانت جزءًا من طبيعتها وهويتها، فقد اكتشف مؤنس عندما قص غرتها، أنها فقدت حيويتها وطرافتها؛ كما فقدت بريق عينيها وذكاءها الحاد، فلم يعد إلى ذلك ثانية... وقد ورد في المعلومات التي وصلتني أن مؤنس كان على علاقة خاصة بها، وعندما طلبنا الطبيب البيطري وحققنا معه اعترف بأن علاقة مؤنس بها كانت غريبة، وأن مؤنس قال إنها تكاد أن تنطق، وطلب من الطبيب أن ينظر في عينيها، وقال إنه لم ير في حياته شبيهًا لهما... ردود أفعالها المعبّرة، قدرتها على الإصغاء والفهم أحيانًا، والأهم من كل ذلك تعلقها العاطفي بصاحبها، لدرجة تكاد تكون بشرية. تودعه بطريقة

عجيبة. تحضر حذاءه. تصوري! تنط على ركبتيه. تلحس يديه. وعندما يخرج ويغلق الباب خلفه، تنبح مرتين بصوت لا يخلو من الشجن. كما أنها تشعر بقدومه عن بعد، فما إن يصل إلى مدخل البناية، وعلى الرغم من أنها تعيش في ملحق بالطبقة السادسة، حتّى كانت تنبح ثلاث مرات متتالية، وتقف عند الباب منتظرة قدومه، ملوحة بذيلها القصير المدوّر. وعندما يدخل، تقف على قائمتيها الخلفيتين وتنط حوله، مرحة راقصة مستعرضة جذلة، وهي تصدر تلك الأصوات المعبرة، التي تشبه الكلام... أعرف أن أصحاب الكلاب -كلهم- يبالغون في وصف كلابهم، لكن بدا لي أن «لولو» هذه كانت كلبة استثنائية بالفعل، ولا بد من الحصول على واحدة مثلها... وكي أتأكد من هذه المعلومات الغريبة أمرت بجلب «صفاء» زوج مؤنس، معززة مكرمة، وقمت أنا شخصيًا بالتحقيق معها مدة أسبوع كامل.! كانت خائفة جدًا، لكنني تمكنت من إقناعها بأننا نبحث عن تلك العصابة المسلحة التي اختطفت زوجها، وأن لولو هي الوحيدة القادرة على إرشادنا، للقبض على المسلحين وتحرير زوجها... وسرعان ما بدأت بالتعاون معنا...

كانت هي من تعتني بالكلبة، وتزين رقبتها بأطواق من الخرز والفراشات القماشية الملونة. وكان ابنهما الوحيد

يلاعبها ويسميها «أختي». يلهو معها ويسمح لها باستخدام ألعابه والنوم في سريره. لكن تعلقها بمؤنس كان أمرًا مختلفا تمامًا. فهو من كان يطعمها وينظفها ويمشط شعرها ويحدثها، ويخرج معها للنزهة مرتين أو أكثر في الأسبوع. وكان أهالي الحارة يشعرون بذلك الوئام بينهما، ولم تكن نظراتهم تخلوا من الاستهجان والتعليقات الساخرة، الممزوجة بالغمز واللّمز... لكن أحدًا منهم لم يصدق أنها اختفت بتلك الطريقة الغريبة التي تشبه الخيال...

ألقينا القبض على مؤنس لأنه كان مطلوبًا بسبب ميوله الإرهابية. وقد أمرت باعتقاله قبل أن يهرب خارج البلاد... سألتُ صفاء إن كانت تعلم من الذي اختطف زوجها فأقسمت إنها لا تدري، وشرحت لي بالتفصيل ما حدث، وكنت على علم بكل شيء:

ذات ليلة، قبل بزوغ الفجر، توقفت سيارة دفع رباعي «مفيّمة»، أمام بنايتنا في حي المزّة، وخرج منها أربعة من الملثمين المدججين بالسلاح، ودخلوا مسرعين. وبعد أقل من ربع ساعة، سمع سكان البناية صوت لولو يملأ مطلع الدرج، ثم رأوها تخرج وحيدة إلى الرصيف وهي تنبح بذلك الصوت الغريب الذي يشبه الاستغاثة أو طلب النجدة... وأكدتْ صفاء أن أحدًا لم ير أو يعلم بما حدث داخل الشقة.

لم يجرؤ سكان البناية على التدخل أو حتى الاستفسار.!
استيقظوا على أصوات أعقاب البنادق وهي تقرع باب بيتنا بقوة، وسمعوا زوّار الليل وهم يقتحمون الشقة بصخب، لكنهم أغلقوا أبواب بيوتهم، كما أُمروا، وراحوا يتنصتون من خلفها، على صراخي وبكاء ابني الصغير ونباح الكلبة وشتائم المسلحين... وقد رأيتهم أخيرًا، من خلف شقوق النافذة، عندما خرجوا من البناية، وهم يجرون مؤنسًا، إلى السيارة «المفيّمة»، مقيد اليدين إلى الخلف، محني الظهر إلى الأمام، وقد أخفوا رأسه داخل كيس أسود... غادرت السيارة المكان بسرعة صاخبة. وحلّ صمت عجيب، على الحارة وسكانها. حتى لولو اختفى صوتها تمامًا، ولا ندري أين ذهبت...

اقتنعت صفاء بأن المسلحين هم من فعل ذلك، وبأننا على علم بما حدث، ووعدتها بالبحث عن زوجها والإفراج عنه في أقرب وقت... وخرجت من الفرع وهي تشكرني وتدعو لي بالتوفيق وطول العمر... لم يخطر ببالها أن لولو لحقت بسيارة الدفع الرباعي، دون أن يشعر أفراد الدورية بها... كان الضوء قد بزغ. وكانت رائحة مؤنس تملأ أنفها. ولم يكن صعبًا عليها أن تتابع السيارة أينما اتجهت... لم يكن الأمر سهلًا عليها بالتأكيد، لكنها وصلت أخيرًا إلى الفرع، وكنت يومها

مناوبًا... وهناك، عندما رأت الباب الحديدي المتحرك يغلق في وجهها، توقفت لاهثة، لكنها سرعان ما قفزت فوق السور، وتمكنت -على ما يبدو- من رؤية مؤنس وقد أنزلوه من السيارة، وربطوا رقبته بحبل، وراح أحدهم يجره خلفه، نحو باب قبو منخفض، بينما شرع الباقون بركله وشتمه وضربه بالسياط كالعادة... كادت تنبح، لكن الخبيثة كتمت صرختها، ولحقت بهم متسللة بين أرجلهم...

لم يفهم العناصر ولا المحققون، من جاء بهذه الكلبة إلى هنا، وكيف تمكنت، من التسلل والدخول إلى هذا المكان السري المحصن بالأسوار وأبواب الحديد والبنادق وكاميرات المراقبة. سمعوا فجأة نباحًا شرسًا يشق الصمت المطبق في القبو، فاندهشوا. ظنوا أنه صوت موقوف فقد السيطرة على نفسه فراح ينبح كالكلاب. لكنهم رأوها أخيرًا تقف في ممر الزنازين الطويل، بيضاء صغيرة يزين عنقها طوق من الخرز الأزرق وفراشة حمراء من الحرير، فظنوا أنها تخصني، لكنها أخذت تنبح بقوة، كما لو أنها تحتج. وتجوح بصوتها الممطوط مثل أم فقدت صغارها. غير مدركة خطورة المخالفة، والموقف الذي وضعت نفسها فيه... ولا عابئة بصدى نباحها الذي فجّر المكان.

سمعت صوتها من مكتبي، واستنفر الفرع، وعمّ

الاضطراب، وأمرت بإقفال الزنازين والكوى، ووقْف التحقيق والتعذيب، وإلقاء القبض فورًا على تلك الكلبة السائبة؛ فهجم العناصر عليها، وتجمعوا حولها، وطوقوها، ظنًا منهم أن الأمر سيكون سهلًا عليهم، وعندما عجزوا عن الإمساك بها، حاولوا التودد إليها بالكلام وتقديم اللحم والمعلّبات، لكنها كانت ترفض ذلك وتقفز من بين أيديهم وأقدامهم، هاربة من ممر إلى آخر، فيركضون خلفها من جديد، صاخبين ملوحين بسياطهم وهراواتهم... وعندما تمكنوا أخيرًا من تطويقها وحصرها في غرفة التحقيق، تحولت إلى وحش صغير، وكشرت عن أنيابها، وكنت أنا أراقب الموقف عن بعد، فأخرجت مسدسي، وأطلقت النار بين عينيها...

سألته ميساء عندما أكمل قصته، إن كان قد وفى بوعده لصفاء زوجة مؤنس، فقال مستغربًا سذاجتها: مؤنس...! مات بعد كلبته بوقت قليل... رفض الحيوان أن يعترف بشيء، فمات تحت التعذيب...

كانت تلك المرة الوحيدة -ربما- التي أفصح فيها الجنرال عن وحشيته.! ولو أن أحدًا غيره حكى لها هذه الحكاية لما صدقت. وبدأت تشك به وتستغرب تصرفاته، وبخاصة بعد «الحرب الكونية» التي شنها الإرهابيون على سورية! كانت تضطر إلى الاتصال به أحيانًا، إذا غاب فترة

طويلـة، كـي تطمئـن عليـه... وأذكـر أنهـا في إحـدى المرات، وضعـت السـماعة وحدقـت بـي طويـلًا وهـي تميـل برأسـها وتصطـك مـن الخـوف، وعندمـا سـألتها ما الأمـر!؟ قالـت: «إنه سـكران! يتحـدث بـكلام غـير مفهوم وجمـل غـير مترابطة»... حاولـتُ أن أخفـف عنهـا، لكنهـا انفجـرت بالبـكاء، ثـم راحت تتذكـر وتحدثنـي كيـف قـال لهـا مـرة إن الصراصـير بـدأت تتسـلل مـن القبـو إلى مكتبـه في الطبقـة العلويـة.! وعندمـا عـاد إلى البيت وسـألته عـن تلك الصراصير، اسـتغرب سـؤالها، وأنكـر.! ومرة أخـرى قال إن الباب انفتـح عليه فجأة، ودخلت منـه كتائـب من الفئـران والجرذان... ومرة ثالثـة قال: إن الدم تسـرب من سـقف مكتبه، وسـال على صورة سيادة الرئيس... ومـرة، اتصلـتْ به بعـد منتصف الليل، وسـمعتْ أصوات نسـاء يصرخـن ويسـتنجدن بالله وأنبيائه، وبالإمـام علي وأتباعه... لكنـه أمرهـا ألا تتصـل به بعـد الآن، وأغلق هاتفـه في وجهها.!

كانـت محقـة في هواجسـها، وهـو محـق -ربما- في سـلوكه الغريـب! ولم يكن سـلوكًا جديدًا، لكن أختـي تأخرت كثيرًا حتـى اكتشـفته واقتنعـت بـه! فقـد أمـر بتصفيـة المئات تحت التعذيـب، وقتـل العشـرات في مكتبـه، بمسدسـه الشـخصي، قبـل أن يقتـل تلـك الكلبـة الصغـيرة... وهـو اليـوم في حالـة حـرب مصيريـة، لا ينتصـر فيهـا القاتـل ولا المقتـول! ويقـال إنـه يخوض المعـارك في النهـار ضد المسـلحين، وفي الليـل يأمر

الجلاديـن باغتصـاب المعتقـلات لديـه، سـواء خسـر المعركة أو ربحهـا... ويقـال إنـه هـو من أمـر بصلب مئة شـاب مـن جوبر، وبـتر أعضائهـم مـع الخصيتـين؛ عندما قُتـل ابنه البكـر صالح، في حـي جوبر الدمشـقي، وقد نُفـذ الأمر على دفعـات، لضيق المـكان! فكلمـا مـات منهـم عشـرة، بسـبب النزيف، شـحطوهم إلى مهجـع الجثـث، وصلبوا عشـرة آخرين مكانهـم.! ويقال إنـه هـو مـن أمـر بتصفية مـا لديـه مـن ضبـاط انشـقوا، أو حاولوا الانشـقاق، عندمـا قُتـل أخـوه الرائـد «حيـدرة» في مدينـة دومـا[1].! وكان عددهم سـبعًا وعشـرين ضابطًـا برتبة رائد...

«هـراء... كلام مغرضـين! هـل تصدقـين أنــت هــذه الأكاذيـب!؟ إشـاعات كثيرة و»فـبركات» أطلقهـا الإرهابيون؛ تهـدف كلهـا إلى تشـويه سـمعته، والنيـل مــن معنوياتــه القويــة».!

لم تكـن ميسـاء قـد أدركت بعـد أن هـذه الحـرب (المعلنة في إعـلام النظام وغيره من المحطـات الفضائية)، قد أججت النار والحقد، وحولت الفزاعات إلى وحوش ضاريـة، وجعلت الطيور تخـاف حتـى الغيـوم، ظنًـا منهـا أنهـا دخـان قذائـف... لكنني تمكنـت بوسـائلي الخاصـة، وبسـرية تامـة، مـن مقابلة عشـرات الناجـين والناجيـات مـن الاعتقـال؛ بعيدًا عن أعـين رجال الأمن

1 - دوما أهم حاضرة في الغوطة الشرقية بدمشق، تعرضت مرات عدة للقصف بالأسلحة الكيماوية، وتم تهجير أهلها.

والمخبريـن. كنت أضطـر -بعض الأحيان- إلى التخفـي بجلباب ونقـاب أسـود، وألتقـي ببعضـ مـن خرجـن مـن المعتقلات... لم تعـترف إحداهـن قـط أنهـا اغتصبـت، ولـن تعترف! مـع أن كل واحـدة منهـن كانـت تحمـل علامـات تعذيـب ونُـدب واضحـة علـى الثديـين والردفين والسـاقين، تدل علـى أنها اسـتبيحت، أو تعرضـت للافتراس! وكل واحدة منهن شـاهدت، أو أجبرت علـى مشـاهدة عمليـة اغتصـاب واحـدة علـى الأقـل، وعمليـة بـتر لأعضـاء شـاب معلق، أو أكـثر.! وبعامة، كل مـن وقعت بين أيديهـم مـن النسـاء تمـت تعريتهـا؛ وبحجة التفتيش، تحرشـوا بلحمهـا وروحهـا.! وإن نجـت إحداهـن مـن ذلـك، فلـم تنـج أي واحـدة منهن مـن الإصابة بالجـرب والقمـل والقروح...!

اقشـعر بـدن ميسـاء عندمـا سـمعت كلمتـيّ «الجـرب والقمـل»... وصرخـت، وهـي تسـد أذنيهـا: لا... لا... ثـم أخـذت ترتجـف...! لم أخبرهـا أنهـم كانـوا يغتصبـون رجـالًا أمام نسـاء، ونسـاء أمـام أزواجهن، وأنهـم يحرقـون حلمة فتاة بأعقـاب السـجائر، أمـام الجميـع، أو يبـترون أعضـاء شـاب أمـام أمـه أو أختـه.! ولم أخبرهـا أن الوحشـية وصلت بهـم، لدرجة أنهـم كانـوا يدخلـون الفئـران في فـروج المعتقـلات، وأن هـذه الحـوادث تمـت -تحديـدًا- في ذلـك الفـرع الشـهير الذي يرأسـه سـيادة الجـنرال! وأنهـم كانـوا يختـاروا أجملهـن، ويقومـون بـ

«تطميش»[1] عينيها وتقييد يديها خلف ظهرها، ثم اقتيادها إلى الطبقة العليا، بحجة التحقيق...!

لم أخبرها بما سجلته ووثقته أفلام الناشطين والمنظمات الحقوقية، المحلية والدولية بالصوت والصورة... لكن أختي المسكينة، لم تكتشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان.! وثّقتها بنفسها، بجسدها، فوق جلدها، وبالدليل القاطع... وعلى الرغم من أن ما حدث معها لا يمكن تصديقه بسهولة، فقد تبين لها أنها هي -كذلك- كانت سجينة ومغتصبة مصابة بالقمل...

×××

ذات مرة أصابتها حكة حادة مفاجئة في بعض المناطق الحساسة من بدنها، أسفل البطن وبين الفخذين... لكنها لم تهتم للأمر، لأنه يحدث -عادة- بسبب الحساسية، أو نوع الصابون أو الشامبو، أو -ربما- بسبب النفط والألوان التي تستخدمها في الرسم.! استعملت مراهم مختلفة للحكة والتحسس، وظنت أنه سيزول سريعًا، لكنه ازداد بشكل حاد، وبخاصة في منطقة العانة، وانتقل إلى إبطيها وردفيها، وبسبب الحكة، انتشرت معه بقع زرقاء شاحبة، وتغير لون جلدها؛ فاستدعت طبيبة الأسرة في الحال، وما إن فحصتها

1 - التطميش: إغلاق العينين بغطاء أسود.

وسألتها بعض الأسئلة المحرجة، حتى طلبت منها أن تحلق شعر عانتها وإبطيها، وأن تستدعي -مباشرة- الدكتورة سعاد، طبيبة الجلدية.! قالتها بثقة وحزم جعل خوف ميساء يتحول إلى ذعرّ! لكنها طمأنتها بقولها: «أظن أنه القمل»... «قمل!؟» صرخت أختي مستنكرة، وأردفت، محاولة أن تفهم إن كان هذا الكلام دعابة أم لغزًا: «ومن أين سيأتي القمل.!؟» منذ أقل من سنة، أصابتها الحالة نفسها تقريبًا، لكن في يديها وبطنها لا غير، وتبين أنها مصابة بجرب طفيف، تم علاجه بسرعة، دون علم من سيادة الجنرال، لكن ميساء لم تسأل يومها: «من أين سيأتي الجرب»! بل اكتفت باستبدال الخادمات والطاهيات! واضطرت إلى حلق شعر عانتها بالشفرة... وعندما سألها الجنرال عن السبب، قالت إن الدكتورة سعاد نصحتها بذلك... كانت مهووسة مثلي بالنظافة، لا تستطيع النوم قبل أن تستحم... وقد يصاب المريض بالجرب عن طريق المصافحة أو الثياب... أما القمل! فمن منا يعرفه اليوم!؟ قرأنا عن ذلك أيام «سفر برلك» وفي زمن الفقر والجهل و«التعثير»... لم نره منذ وقت بعيد في أي مكان، النظافة قضت على القمل منذ أكثر من نصف قرن... فمن أين سيأتي القمل لزوجة جنرال تستحم -أكثر الأحيان- بالنبيذ والشمبانيا والمغاطس المعقمة!؟

استحمت مرتين ونتفت شعر جسمها بآلة الـ «بروان»

الألمانيـة الأصليـة، ولم تـكتف بذلـك، بل طلبت مني مسـاعدتها على سـلخ جلدها بالشـمعة العسـلية... لكن ذلـك كله لم يفد شـيئًا. وكـم كانت دهشـتنا كبـيرة، عندمـا فحصت دكتورة الجلديـة، عانـة أختـي وحاجبيهـا وأهدابهـا بالمكـبرة، وقالـت «أيـوااا»... ثـم تناولـت بملقط دقيـق، حشـرة صغـيرة وضعتها تحـت المكـبرة وأعلنـت بأن هذا اسـمه قمـل العانة التناسـلي، أو «القُمّـل» واسـمه العلمـي Crab louse، وهي تشـبه سـرطان البحـر، أنظـري... تصعـب رؤيتهـا بالعين المجـردة، لأن طولها لا يتجـاوز ملليمـترًا ونصـف.! صُعقت ميسـاء... فتحـت عينيها دهشـة ولم تعـد تسـتطيع إغلاقهمـا: «قمـل العانة التناسـلي!؟ شـو يعنـي!؟» وعـادت ثانيـة إلى السـؤال نفسـه و«مـن أيـن سـيأتي القمل!؟»

قالـت الدكتـورة بحياديـة تامـة، إنّ العـدوى بالقمّـل قد تتم عن طريق الملابـس أو الفرش والبطانيات والمناشـف... لكـن الطريقة الشـائعة للإصابة بقمـل العانة -تحديدًا- تـكون عـبر الجمـاع.! كتبـت وصفـة مناسـبة، وأكـدت علـى ضرورة غسـل جميع الملابـس وحلق العانـة بالشـفرة، وتجنب الاتصال الجنسـي تمامًـا... كما طلبـت -للاحتيـاط- أن يخضع الشـريك للعـلاج أيضًـا...!

واحتـارت ميسـاء مـاذا تقـول أو تفعـل! هـل تخـبره بمـا

حـدث؟ ولكـن كيـف!؟ سيرتاب فيها حتمًـا.! لم أشـك للحظة واحـدة أنه هو مـن نقل إليهـا العدوى، فأختـي لم تعرف رجلًا غـيره... أنـا أكيدة من ذلك، وحتـى لو أرادت فلن تسـتطيع... أمـا هـي، فلم يخطـر ببالهـا أبدًا أن يكـون هو السـبب.! كانت ثيابـه تغسـل فـور وصولـه إلى البيـت، ولم تكـن تنـام معـه ولا تـراه أصـلًا إلا مـرة في الشـهر أو الشـهرين... وقـررت أن تعرض نفسـها علـى طبيبة أخـرى، لكن الإصابـة بقمل العانة التناسـلي، تأكـدت هـذه المـرة أيضًا...

زارهـا منـذ أسـابيع قليلـة، كان نظيفًـا أنيقًـا معطـرًا.! ولم أحـاول أن أقـول لأختي شـيئًا.! فهذا موضـوع خطر جدًا.! وإذا تأكـد ظنـي، فهـذا يعنـي أنـه يشـارك فعـلًا في اغتصـاب المعتقـلات، ولكن، كيف تسـتطيع ميسـاء أن تثبت هـذه التهمة الخطـرة، وهي لا تجرؤ، حتى على إخباره بما حدث!؟ إن معرفته بالأمـر وحدهـا، قـد تـؤدي إلى قتلها، وهـو لا يعدم الوسـيلة أو السبب...

قررنـا -بعـد أيـام- أن نخفـي الأمـر عنـه، إن اسـتطعنا، وطلبـت منهـا أن تهـدأ وتتصـرف بحكمـة، وراحـت -بدورها- تدعـو الله ألا يأتـي قبـل أن تكمـل العـلاج، وقبـل أن يكتشـف أنهـا حلقـت... واقترحـتُ عليهـا أن تسـافر خـارج البـلاد، أن تخـترع ذريعـة مـا، وتبتعـد لفـترة مـن الزمـن... لا أظـن أنـه

سيمانع في سفرها، مع أنها لم تسافر وحدها قبل الآن، إلا بمهمة رسمية...

وفي حمأة التفكير والتدبير رنّ هاتفها... كان هو المتصل.! سألها ماذا تفعل، وعلى غير عادته، سأل عن أحوالها وصحتها... وقال إنه حلم حلمًا مزعجًا وأراد أن يطمئن عليها... وأخيرًا طلب إليها أن تجهز نفسها وتعود إلى دمشق لسبب طارئ...

كاد الهاتف أن يسقط من يدها، لم تعد تقوى على الوقوف... ولم تجرؤ على سؤاله عن السبب... هل علم بما حدث! لا شك أنه علم.! لا يخفى على رجل مثله أمر كهذا... هل أخبرته إحدى الطبيبات أنها مصابة بقمل العانة التناسلي.!؟

كانت المعارك على أشدها في حمص، فأرسل إليها حوامة كي تنقلها إلى دمشق... وتبين -عندما وصلت- أن السيدة الأولى هي من طلبت حضورها، كي تشرف على مشروع خيري تقيمه للأطفال المهجرين من حمص... كنت أرافقها كظلها، لا علاقة لي بمشاريع السيدة الأولى وخططها، وكانت فرصة مناسبة جدًا للوقوف إلى جانبها، والكشف عن مؤامرة القمل التي ابتليتُ بها.! اشتريت مكبرة لي وأخرى لها، مثل تلك التي تملكها الدكتورة سعاد، وخبأتها في مكان

آمـن بانتظـار قدومـه، لكنـه لم يزرهـا إلا بعـد أسـبوع مـن قدومنـا إلى دمشـق... وصل -دون إنـذار- بعد منتصـف الليل، وركضت ميسـاء تسـألني ماذا سـتفعل.! ولم يكن أمامها سـوى حجـة واحـدة هـي الـدورة الشـهرية... يومهـا أمضيـت جل وقتـي في غرفـة الغسـيل؛ حيث كنـت أفحص على مهـل ثيابه الداخليـة... كانـت بيضـاء، لكـن متسـخة لدرجـة القـرف، مليئـة ببقـع صفـراء وبنيـة... وعلـى الرغم من وجـود المكبرة، لم أتمكـن من تمييز شـيء في هـذه الفوضى... كيـف يمكن لجنرال أنيـق أن يخفـي مثـل هـذه القـذارة!؟ أسـتطيع أن أؤكد أنه لم يسـتحم أو يبـدل ثيابـه منـذ أسـبوع، وربمـا أكـثر... علمًـا أن لديـه في مكتبـه، حمـام و«بانيـو» فاخـر، ويسـتطيع تبديـل ملابسـه الداخليـة في أي وقت يشـاء!

في ذلـك اليـوم اسـتيقظت مرعوبـة.! كان فمـي جافًـا ولسـاني تحول إلى قطعـة حطب، وكانت ميسـاء تحب الموسـيقى، فأصحـو دومًـا علـى صوتهـا، لكنـي -يومهـا- شـعرت بصمـت مريـب يخيـم على البيـت! ظننـت أنه مـا زال نائمًـا... نهضت -بحذر- وسـرت نحو جناح ميسـاء، وجدتها في غرفتها وحيدة تقـف عاريـة أمـام المـرآة، لا ترتـدي سـوى برنـس الحمـام... عندمـا رأتني ابتسـمت، أيـن الموسـيقى؟ سـألتُ، فقالتْ: «ما في موسـيقى» وقهقهـت علـى غير عادتهـا بصـوت مرتفع... لم تكن أختـي التي أعرفهـا، بل امرأة أخرى، جديـدة! متمردة... «لم

أنم طوال الليل» قالت، «كنت أنتظرك منذ الفجر»... ثم جذبتني فجأة نحوها، وضحكت دونما سبب، وقالت على طريقة أرخميدس: «وجدتها...!» وهُيئ لي -فجأة- أننا تبادلنا الأماكن! صرت أنا داخل المرآة وهي خارجها...

«ليست قملة واحدة، بل ثلاث قملات... كنت أستطيع -لو أردت- أن أقترب من عانته الخشنة وأن أعضها بأسناني، دون أن يشعر... قدمتُ له كأسًا واحدًا من الويسكي، وجعلته ينام بعمق... استحم وتعطر وما إن وضع رأسه على المخدة حتى راح يشخر... لا شك عندي الآن أن شعر صدره وذقنه غابة كثيفة تخفي جيشًا من القمل! وجدت القملة الأولى فوق جبينه... وعندها، نسيت وجوده، لم أعد أخافه، ولم يعد يهمني إن استيقظ أم لا. أحضرت المكبرة ورأيتها... كانت بيضاء تلمع مثل ذرّة دهن... خرجت واحدة أخرى من بين شاربيه، دارت حول فتحة أنفه ومشت بثقة نحو الأعلى.! لم تكن قملة واحدة بل تشكيلة من القمل تسرح على وجهه، بعضها صغير كالصئبان، يعشش في فروة رأسه، ولا يُرى إلا بالمجهر، وبعضها كبير عسليّ، تستطيعين رؤيته بالعين المجردة.! تسللت واحدة ضخمة من تحت حاجبه، ومشت ببطء على جبينه المرتفع... إنها تشبه سرطان البحر: رأسها قصير، وصدرها عريض، يتألف من ثلاث قطع ملتحمة، أما

بطنها فيتألف من ست قطع، ولها أرجل طويلة ذات عقائف... تمكنت من التقاط ثلاثة منها بأظفاري، هل تريدين أن تريها؟ تعالي... أخرجتْ من الدرج ورقة مطوية بحرص، وبداخلها ثلاث قملات كبيرة... انظري... هل ترينها؟ خذي المكبرة وانظري إليها... هذا هو الدليل، ولا يهمني شيء بعد الآن... استيقظَ متأخرًا، ارتدى ثيابه وخرج مسرعًا، كانت المرافقة بانتظاره... وبقيت أنا أنتظر أن تستيقظي كي أريكِ الدليل... هذا هو الدليل...

لم أصدق ما سمعت وما رأيت! لكنها كانت سعيدة باكتشافها... لم أرها يوما بهذا الإشراق.! أصبحت مثل فراشة خرجت للتو من شرنقتها.

بعد أيام قليلة، وعلى غير عادتها، ارتدت سروال جينز قديم وحذاء رياضيًا مناسبًا! طلبت مني أن نخرج للتجول في نزهة بسيارتها الجديدة! أمرت المرافقة ألا ترافقها... كان الوقت صيفًا، والشمس قد غابت منذ أكثر من ساعة... بقيت صامتة طوال الطريق، وعندما اقتربنا من ساحة الأمويين، أوقفت السيارة -فجأة- في مكان معتم، وأطفأت محركها ثم نظرت إلي وقالت: «ألم تطلبي مني أن أهدأ وأتصرف بحكمة... خلص، انتهينا... المرأة الحرة لا تستطيع أن تعيش مع رجل نذل...»

تجادلنا طويلًا، كنت خائفة عليها، وأعرف ما الذي يدور في رأسها، وما المخاطر التي تنتظرها، لكنني لم أكن أتوقع أن تتركني هكذا بلا رحمة.! قالت إنها مشغولة بشأن ما، خاص بها.! لم أجرؤ على سؤالها، ظننت أن السيدة الأولى قد طلبتها... أمسكت بيدي ووضعت فيها مفتاح سيارتها وهاتفها «الخاص»، وقالت: «استحمي جيدًا»؛ ثم تركتني متجهة نحو طريق الربوة[1]، وابتعدت حتى غابت في العتمة...

1 - قرية خضراء على نهر بردى، بالقرب من قرية ميسلون الشهيرة، تقع على الطريق القديم الرابط بين دمشق وبيروت

- 3 -

أعترف أن جلـدي راح يحكنني وأنا أقـرأ مقطع القمل.!

شـعرت أنـه يسـرح في شـعر صـدري وفـروة رأسـي وحاجبـي... صـرت مضطـرًا -مثـل ميسـاء- لأن أحلـق شـعر عانتـي وأسـتحم مرتـين في اليوم، ولو كنت أسـتطيع أن أسـلخ جسـمي بالشـمعة العسـلية لفعلـت، كـي أتخلـص مـن هـذا الشـعور المقـزز.! وكإجـراء احترازي، قمت بشـراء مكـبرة مثل مكبرة الدكتورة سـعاد، ووجدت نفسـي أتسـاءل مثل ميسـاء: قمـل! ومـن أيـن سـيأتيني القمـل!؟ كان موجـودًا عندمـا كنا نعيـش في الظلمـات، مع الحيوانـات، هل عدنا إلى عصـر الظلمات و«الحيونـة!؟» وهـل يعقـل أن تكـون هـذه الحكايـة واقعية، أم هي مـن نسـج الخيال!؟

انتظـرت النهايـة لكنهـا تأخـرت... ولا أدري لمـاذا خفـت أن تكـون الحكاية قد انتهـت بالفعل، أو ربما شـارفت على النهايـة، ولم يبـق أمامنـا إلا وضع اللمسـات الأخـيرة، وصياغة خاتمـة مناسـبة لها، قبل طباعتهـا... والخاتمة -كما هو معروف- أصعـب مرحلـة في الإبـداع بأنواعـه كلهـا. العـرب يسـمونها «حسـن التخلص» والأكاديميـون يقولـون: قد يكـون للرواية خواتيـم لا نهايـة لهـا؛ لكـن واحدة فقـط هـي الصحيحة!

في تجربتـي هـذه، تبـين أن الروايـة تحتمـل نهايـات كثـيرة، وأنهـا صحيحـة كلهـا...

اقترحـتْ طهـران أن نتوقـف عنـد رحيـل ميسـاء وقولهـا «لكنهـا أمسـكت بيـدي ووضعت فيها مفتـاح سـيارتها وهاتفها الخاص»، وقالـت «استحمي جيـدًا»؛ ثـم تركتنـي متجهـة نحـو طريـق الربـوة، وابتعدت حتـى غابـت في العتمة...

ربمـا يكـون هـذا جميـلًا، وممكنًـا، مـن الناحيـة الدرامية على الأقـل، لكنها نهاية غامضة حزينة ورومانسـية! لم أوافق عليها، ظننت أنه سـيكون من الأفضل أن تكون النهاية سـعيدة! فأنـا كاتب متفائل، أحب إشـعال الشـموع.! كلما قتلوا شـاعرًا ورثـت دمه، وكلما قتلوا امرأة ورثتُ رحمهـا، وكلما قتلوا طفلًا ورثـت براءته وألعابـه... قد أكـون طوباويًا أو رومنسـيًا، وربما مثاليًـا أو مراهقـا سياسـيًا، لكنني متفائل بعمـق، على الرغم من

هزيمتي وانحساري، وعلى الرغم من خوفي وشعوري العميق بالغدر والخذلان من قبل العالم وكرته الأرضية، وأصدقاء بلدي وأعدائها وأشقائها وعشاقها وخلانها وجيرانها... متفائل على الرغم من انحراف الكون، وعلى الرغم من اختفاء العلم الملون من سماء المدن المدمرة، وارتفاع الرايات السود... متفائل رغم أنفي، وكيف يمكن أن أتشاءم وقد تجاوزت الستين! ورأيت بعيني العنقاء وهي تخرج من تحت الركام والرماد!؟ المتشائمون يجترون الماضي ويأكلون أنفسهم... يجب أن أكتب نهاية متأملة؛ كأن تنتهي الحرب مثلًا، أو أن تحقق طهران أحلامها! أو أن يموت الجنرال، ألم تقل إنه قتل في ظروف غامضة عام 2012؟ فلماذا لا نلقي الضوء على مقتله، نستمتع به، نشعل النار ونغني ونرقص حولها!؟ لقد قُتل حقًا، ومنذ سبع سنوات، لكن الحرب لم تنته بعد، والخراب راح يتخمر وتخرج منه فقاعات العفونة وروائح الكارثة.! وما الفائدة من الحديث عن مقتله؟ يوجد مثله العشرات المئات الآلاف... وهل سيساعد هذا في وضع نهاية للقمل والبؤس والدمار القادم!؟ ولماذا لا أتحدث بإسهاب أكثر عن أبي خضر مثلًا، والد «الشهيد»، الذي تحول من مناضل يساري إلى متعهد كبير!؟ هل يشفع له انتحاره؟ إنها قصة حزينة أيضًا، والحديث عنه مجددًا لا يصلح أن يكون نهاية معقولة... كان يجب أن أفعل ذلك في حينه! لقد فات الأوان

الآن... هل أجعلها تهرب إلى داريا وتختبئ هناك خوفًا من انتقام الجنرال، وتبريرًا لعلاقتها مع جفان؟ لكن الجنرال قتل منذ بداية النهاية، وقصتها مع جفان غير حقيقية أصلًا... وماذا عن شخصية الملازم الشاب حيدرة؟ إنها طريفة حقًا، وقد تكون قابلة للتطور، لكنها قتلته -أيضًا- في دوما، بعد أن أصبح برتبة رائد...

أصرّتْ على أن أقوم أنا بكتابة الخاتمة! قالت بوضوح إنها لا تعرف -حقًا- كيف تكتبها، واتفقنا أخيرًا على أن نكتب نهايتين: واحدة تكتبها هي، والأخرى أنا... أعجبتُ بهذا الاقتراح، وبدأت للتو بالتفكير والتنفيذ، وقررتُ أن أعيد النظر بشخصية فرج، إنها شخصيتي المفضلة. وبدأت بذلك... عدت إليه من جديد؛ كنت أريد أن أزوجه وأجعله يبني بيتًا ويصبح أبًا...

لكنها توقفت فجأة عن التواصل معي، ولم تعد ترد على رسائلي! والأخطر من هذا أن أحدًا ما قام بتعطيل بريدها الإلكتروني! كنت أتوقع هذا! وقد حدث سابقًا، فشخصية غامضة كطهران، لها نهاية مأسوية واحدة، هي الاختفاء المفاجئ، وربما الخطف أو القتل، من يدري.!؟

كم كنت أن أود أن ألتقي بها ثانية قبل اختفائها! أن تزورني ونقضي ليلة نبيذ تشبه تلك الليلة التي

استدرجتني فيها إلى بيتي، وحملتها بين ذراعي... ليلة واحدة أخرى تكفيني، نهد واحد يكفي... كنت أظن -لسذاجتي- أنها ستكون خاتمة مناسبة، نمارس فيها الحب والنبيذ والتقميل الجنسي والروحي. ! أمشط شعرها بعظم أصابعي، كي أنظفه من الصئبان، أو نذهب سرًا إلى إحدى الغابات البعيدة البكر، حيث نتحول إلى قرود عارية؛ يلاحق كل منا الآخر، نقفز من شجرة إلى شجرة، ثم يقوم أحدنا بحضن نصفه الثاني وتثبيته بين ركبتيه، ليتفقد شعره وجلده، ويخلصه من القمل، بلا مكبرات ولا مراهم أو عقاقير طبية... لكن أين أجدها الآن؟ كيف أبحث عنها، والدخول إلى داريا مازال ممنوعًا، والقبو الذي وصفته وأعرفه جيدًا، مازال غارقًا تحت ركام من التبن وقشور اللوز. ؟ ومن قال إنني سأجدها هناك...؟

مضى أكثر من ثلاثة أشهر، قبل أن أفاجأ برسالة جديدة منها، ومن حساب بريدي جديد، وما إن قرأتُ رسالتها حتى شطبت النهايات «السعيدة» كلها التي خطرت على بالي، وقررت أن تكون رسالتها هي النهاية:

تحياتي غسان.

سامحني... لقد اضطررت لمغادرة البلاد. أنا الآن في فرنسا، تركت فلذة من صدري لديك، ورحلت! سوف

أحصل على إقامة موقتة قريبًا جدًا... أعذرني، لأنني لم أتمكن من كتابة نهاية مناسبة كما اتفقنا... لقد كتبتُها منذ البداية! ذهبت البطلة كي تعيش مع جفان في قبو بمدينة داريا، وعندما مات جفان ماتت...

كنت -أحيانًا- وقحة جدًا معك، كذبت عليك في أكثر من فصل وحكاية؛ والرواية -كما قلتَ- لا تتقن الكذب، فأرجوك أن تصحح خطأي وتحذف ريائي أينما وجدته. نعم أنا من رسم تلك اللوحة التي تتحرك فيها الفئران، وقد ذهبت إلى ذلك القبو كي أسترد لوحة أخرى رسمها جفان لي، وأنا عارية تمامًا، بنهدين بارزين... خفت أن تقع في يد الأمن، هذه هي الحقيقة. وعندما اكتشفت أن جفان قد أتلفها قبل مقتله، حرصًا علي، عدت مسرعة إلى البيت... كان اسمي مستعارًا، نعم، كنت -بالفعل- وحيدة أمي وأبي. وقد اخترعت أختًا كي تحمل همي، وتقول ما لا أستطيع قوله... حتى أخي خضر كان محض رسم على الرمال...

باستثناء حادثة «قمل العانة»، أغلب الحوادث التي سردتها كانت ملفَّقة، لكنها كانت حوادث واقعية، صدقني. كنت أريد أن أقول الحقيقة عن طريق الكذب! لا أستطيع البوح بالحقيقة/ حقيقتي، كما هي وبشكل تام،

لأنها ليست ملكي، ولأنها قاتلة، وهذا ما أجبرني على تلفيقها بعض الأحيان... لكنها كانت واضحة! ألم تكن واضحة؟

هل تذكر زيارتي لك في تلك الليلة، عندما شربنا النبيذ؟ إنها الحدث الحقيقي الوحيد في هذا الركام من الكلام... لو تعلم ما الذي فعلته بي هذه التجربة.! شعرت بأنني امرأة حقيقية، وكانت محاولة رائعة منك لغسل روحي.

شكرًا لك غسان، لقد أنقذتني من الموت. وشكرًا لأنك وفيتَ بوعدك ولم تذكر اسمي الحقيقي... لن أكذب عليك بعد الآن، صدقني، كلي ثقة بأنك ستصدق وتغفر حماقاتي السابقة. لم يكن جفان إلا حلمًا مشتهى، وأنتَ أعلم الناس بذلك، إنك تشبهه، لأنك الأقرب إلى هذا الحلم اللذيذ. كنتُ بحاجة ماسة إلى رجل يحملني بين ذراعيه، ويدخلني إلى غرفة النوم، وكنت أنتَ ذلك الرجل.

أرجو أن تحذف اسمي المستعار وتنشر الرواية باسمك أنتَ. هي ملكك وحدك، احذف منها ما شئت وأضف إليها ما تشاء، إنها روايتك، وإذا كان ذلك سيشكل أي خطر أمني عليك، فأرجوك ألا تغامر! أرجوك... مزقها أو انشرها بأي اسم مستعار، وليكن جفان أو طهران أو ميساء أو فرج الحزين، أو أي اسم آخر، فجميع الأسماء من صنع يديك أنت...

بالمناسبة، ميساء وجفان وفرج يهدونك التحية ويشكرونك: فرج يشكرك لأنك احترمته ولأن نهايته كان يجب أن تكون في الجامع، كما حدث مع كثيرين، لكنك جعلته ينتفض، وحولته من لقيط مجهول النسب، إلى رجل هام... وجفان يشكرك لأنه مات باكرًا وارتاح... أما ميساء فتشكرك لأنها «تحبك».

هند

باريس. منتصف آذار. 2019

